A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

الى سعادة العلامة البحاثة المؤرخ
العربي الاكبر السيد فيليب
دي حفظه الله المؤلف
1905
شباط ٥

301.412
D194hA
v.2
c.1

الكتاب الثاني

المرأة
في السياسة والاجتماع

تأليف

هاشم وفتر دار المدني و محمد علي الزعبي
الاستاذين في كلية فاروق الاول الشرعية ببيروت

صدر
١٣٦٩ هـ ١٩٥٠ م

— الطبعة الاولى —

حقوق الطبع والترجمة محفوظة لدار الانصاف

Philip K. Hitti
Li55-14504

المقدّمة

كان يقول « ديدرو » إن الذي يود ، أن يكتب عن المرأة ، يجب عليه أن يغمس قلمه في قوس قزح . وقوس قزح هنا ، مجلى الافتنان والسحر والطهر والجمال ، والحياة والخصب ، والسمو والرفعة .

والكتابة عن المرأة ، هي كتابة عن سر الحياة الاول والاخير ما دام بيد المرأة إسعاد الحياة وخيرها ونبلها ، بل سلامها وبقاؤها ، ومن يهو لدى الكتابة عن المـــرأة ، إلى حمأة الغريزة للتجارة والاستغلال ، أو لايحسن الابانـة عن ألوان الطيف الزاهي ، او يعجزْ عن السمو ، أو يلتو عليه القصد ، أو يضق بـه الفكر ، أو يجهل المعرفة ، أو تصغر في عينيه المرأة ، فلا يبصر من تاريخهـا إلا صغار نفسه ، فالأجدر به أن يحطم قلمه ، وأن يـدع الكتابـة في موضوع يعجز عن التحليق فيه ، والاخلاص له .

والذي حدانا إلى الاسراع ، في انجـــاز الكتاب الثاني من سلسلتنا هذه ، هو مالاقاه صدور الكتاب الاول ، من الدوي الهائل ، في كل أوساط المرأة ، حتى نفد من الدار ، ولما ينقض شطر العام ، وطلب الينا ترجمته إلى الانكليزية والتركية والاوردية .

وقد دلتنا على جلال حيوية المرأة العصرية المثقفة ، وعميق وعيها لكل ما يكتب عنها ، جملة الرسائل التي وافتنا بها . وهي وإن كانت لاتخلو من إسراف في الثناء أو اغراق في النقد ، فانها تحوي أهدافا قيمة ، ما وسعنا حيالها إلا أن نوجه بحوثنا اليها توجيها رفيقاً

لأن الصراحة والصدق ، اللذين أخذنا أنفسنا بهما ، يحفزاننا بكل إخلاص ، إلى الإعجاب بهما واكبارهما إذا وافانا بهما سوانا ، في طهر النوية ، والايمان بضرورة التجديد والنهضة ، واستعادة الامجاد.

وقارئاتنا سيبصرن — فيما يلي من نقاط مبسوطة — اكبارنا للنقد ، إذا جاء نزيها مشرقاً ، يرفعه حب الخير للانسانية ، ويسمو به شرف النفس عن أوضار الاحقاد الوضيعة ، التي تكون عادة من رواسب عصور الانحطاط ، في أنفس المرضى .

ونحن بعد نستعذب المجهودات الجبارة التي نبذلها معاً ليلاً ونهاراً ، في استقصاء موضوعات هذه السلسلة الفذة ، من أعماق تاريخ حياة المرأة ، ،في شتى ادوارها. والتي ستمتاز بها اللغة العربية بلاريب ، تاركين في أنفس المرضى الحسرة والغصة ، علهم يقضون فيريحوا الامة من بلاياهم ، ما داموا لايعلمون أن الاعضاء الحية القوية في الامة ،تكسبهم هم الحياة ، وتطهرهم من أدوائهم الموبقة كل التطهير.

١ — « ... وإن سلسلة كهذه ، تشتمل على بسط تاريخ حياة المرأة ، في صميم السياسة والاجتماع ، وتذخر أمجادا في الاسرة والمجتمع ، يجب أن يكون لها حظ من الدعاية كبير يوازي قيمتها . . . »

ونحن نجيب صاحبة الرسالة بكلمة الانسان « الانسان » «إبراهيم لنكن» ، إذ يقول ،في خدع الدعايات الكاذبة وذويها... « في استطاعتهم أن يخدعوا بعض الناس في بعض الوقت ،ولكن ليس في استطاعتهم أن يخدعوا كل الناس في كل الوقت »

أجل ، إن الدعايات تخدع كثيراً ، الاحداث والاغرار من الدهماء وترويج الباطل في ثوب الحق ، والشر في غلالة الخير ، والجهل في رداء العلم ، والاثرة في معطف الايثار ، ولكن في النهاية ، لابد أن تهتك عنها الاستار ، وتظهر الحقائق للناس جميعاً على أننا اكتفينا بحيوية الكتاب الخالدة ، وكبير منافعه الاصلاحية عن كل الدعايات « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » (١) وإذا لم تكن حيوية الكتاب الداخلية هي الدعاية الحية ، فما تحييه ، ولن تحييه الدعايات الخارجية .

٢ - يقول بعض الكاتبين الينا ، «لماذا لا تأخذون في التحليل والاستنتاج ، لدى استعراضكم موضوعات الكتاب ، وفاء أننا إنما نستعرض في كتابنا تاريخ حياة المرأة ، في الناحية التي نبحثها منذ أقدم الاجيال إلى اليوم ، تاركين شرح البواعث والاسباب والاستنتاجات لفرصة اخرى ، بعد إنهاء هذه السلسلة ، لأن التحليل والاستنتاج ، قبل شمول المعرفة ، يأتي قلقاً مبتوراً لاغناء فيه ولا خير .

٣ - « . . لاحظت أنكم أعرضتم عن ذكر « أرتميزة » قائدة البحرية الفارسية ، لدى اصطدام فارس باليونان ، ولا يجمل اهمال مثلها ثقافياً ، وذلك مما يؤسف المثقفات العالمات » .

والواقع الذي يعنينا إعلانه أننا ما أعرضنا عن ذكرها ، وذكر

---

(١) الرعد ١٧

سواها ، أمثال « ديدون » (١) و « تركمان خاتون » (٢) و « فاطمة الاسعد » .(٣)و « ماء السماء بنت عوف اللخمية » (٤) « وعذراء سرقسطه » (٥). . . إلا خشية أن نغوص ، في اعماق الابحاث التاريخية ، فنضيع على القارئات أبحاثاً اخرى ، هي خليقة بالاهتمام والدرس . ورغبةً في الافادة ، وإيثاراً للنفع العام ، كففنا من الافاضة بعض الشيء مضطرين ، لنجعل الكتاب على وضعية توائم كل القابليات ، وتناسب كل العقليات .

---

(١) هي الفتاة الصورية مؤسسة مجد فنيقيا وراء البحار . راجع الدر المنثور ١٩٤

(٢) والدة السلطان « سنجر » عاصرت الامام الغزالي ، وكانت تتيمن برأيه ، أسرت في حرب دفاعية وماتت في الاسر . راجع مركز المرأة في الاسلام ١١٨

(٣) بنت اسعد الخليل ، شاركت زوجها علي الاسعد حكم بلاد بشارة شمال فلسطين - وخصصت قسماً من بيتها ومالها للايتام عاشت آخر القرن الثالث عشر للهجرة. راجع أعلام النساء ٣٠-١١٣٨

(٤) تولت ملك الحيره ومن نسلها ملوك العراق قبل الاسلام طلب ودها الاكاسرة ،وهادوها بالجواهر. راجع نهضة المرأة المصرية ١٠

(٥)أوغسطينا الاسبانية ،جان درك الاسبان ، أو خولة العرب، اشتهرت بالدفاع عن اسبانيا ، اثناء حملات الفرنسيين عليها ١٨٠٨ -١٨٠٩ وظفرت بهذه الحملات ، وقادت فرقاً متعددة . راجع الدر المنثور ٤٣

أما ارتميزة ،فقد جاء ذكرها في عدة مصادر،راجع المقتطف٧-١٧

٤ – « . . . ما عهدنا أن الخطاب ، يوجه إلى المرأة فحسب في كتاب ، من الفه إلى يائه ، لا في القديم ولا في الحديث ، وأحسبكم أنكم تتملقون المرأة في توجيه الخطاب اليها وحدها .

لماذا ، لماذا هذا التملق الظاهر ؟ والمرأة بطبيعتها منضوية تحت جناح الرجل ، في كل بلاد العالم ، وفي كل لغاتها . . . »

وتفاديا عن بسط ما تشتمل عليه هذه الرسالة ، من إطالة جارحة تدور حول هذه الفكرة . نقول : لاريب أن للمرأة شخصية مستقلة لاينازعها فيها منازع ، مهما بلغ من الامر ، وإننا نشاهد هـذه الشخصية المستقلة ، في كل بلاد العالم وفي كل لغاتها .

نعم تمتاز اللغة العربية ، بكفاية وضوحها في هـذه الناحية ، بصورة جـد رائعة . ونؤكد لناقدنا الكريم ، أنا تعمدنا توجيه الخطاب اليها في هذه السلسلة تعمداً ، احتفاظا بشخصيتها ، ورعاية لادب الله ورسوله في ذلـك « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقـانتين والقانتات ، والصادقين والصادقـات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشـعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحـافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثـيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيماً » . (١)

---

(١) سورة الاحزاب آية ٣٥ . وإنا نجد القرآن المجيد ذاخـراً بالآيات الموجهة إلى المـرأة ، وكذلك الاحاديث الشريفة ، وقد آثرنا ذكر هذه الآية الكريمة ، لأن بعض النساء المجيدات في عصر

على أن هذه السلسلة ، هي خاصة بالمرأة ، في كل اتجاهاتها ومقاصدها ، فمن العدل والحق أن يوجه الخطاب اليها .

وإذا كان ناقدنا البحاثة يقول : « إن هذا أول كتاب في التاريخ يوجه فيه الخطاب إلى المرأة . . . » .

النبوة ، ذاكرن رسول الله ﷺ في شأن اختصاصهن بالذكر في كتاب الله ، وأشفقن من الاعراض عن ذكرهن مختصات ، وخفن أن يكون ذلك لحيبة أو خسار في المرأة ، فأنزل الله هذه الآية وأمثالها دفعاً لذلك الظن ، وبيانا لقيمة المرأة وأنها شريكة في اعباء الحياة ، والاستجابة للتكاليف المفروضة ، التي تشتمل على سعادة الجميع ، كما هو مبين في نص الآية ، راجع تفسير الجلالين ٥ - ١٧

وكم نجد من الفارق العظيم ، بين نفسية الصحابيات الكريمات اللائي يحافظن على شخصيتهن كل المحافظة ، وبين بعض المتعلمات في هذا العصر ، التي راق لها أن تطلب حذف نون النسوة من اللغة قائلة : يكفي أن نقول كتبوا للرجال والنساء معا ، ناسية أنها بذلك تذيب شخصية المرأة من صميم اللغة ، التي احتفظت بها في كل الاطوار ، ولو أنها انصفت أو انتصفت لاخواتها لقالت : الأولى أن نحذف من اللغة واو الجماعة ، فنقول للرجال والنساء معاً ، كتبن وإذا ثار الرجل محتجاً ، لأنه بضرورة الحال يرفض ذلك ، فيكون الاولى أن تظل شخصية كل من الفريقين محفوظة ، احتراما واجلالاً ، وتقديراً للقيم ، نقول ذلك ونحن نعلم ، أن حق أوضاع اللغة ، انما هو للاجيال والجماعات لا للافراد وسخافاتهم .

فليكن ، ومما يضيرنا أن يستنيم جنابه إلى جناحها ، منضوياً في كتاب واحد ، ما دام ناقدنا يرى ، أن قراءته له ، والخطاب موجه إلى المرأة ، فيه جرح لكرامته ، وهذا غير لائق في حقه ، وقصارى ما يريده ، أن توجه الخطاب الى الرجل ، وإن كان مقصودنا المرأة ، لا لشيء سوى رعاية التقاليد ، لما تواطأ عليه الكتاب .

٥ ـ لابد لنا تقدير المثقفات لهذه السلسلة الاصلاحية ، بما نفحتنا به من رسائل حماسية ، تدل على الحياة والوعي والسمو ، والسهر على تأييد الاعمال الاجتماعية الخالدة ، بأكثر مما يلذ لنا تأثيرها في كل أوساط المرأة ، تأثيرا عمليا ينهض بالاخوات المنطويات على رغبات انفسهن الضيقة ، اللائي لايبصرن من قيم الحياة ، الخليقة بالاعجاب والتقدير ، والعمل والتضحية ، إلا أوجههن في المرآة ، ولا يحسن من الاعمال سواها أبدا .

ولن يعزب عن بالنا ، أنهن أردن برسائلهن حماستنا إلى موالاة إصدارها ، ونحن نعاهدهن أنه لم يك في نيتنا حين اعتزمنا ذلك ، أن نتراجع عن الدرس والبحث والاصدار ، سواء أوجدنا من يفهم جلال ما نقدم فيبالي ويعلن ، أم من لم يفهم فلا يبالي ولا يعلن ، وسواء أكانت الاسباب والتكاليف شاقة عسيرة ، أم سهلة يسيرة ، وسواء أفرضتها وزارات المعارف في العالم ، على الطالبات لتشق لهن طريق المجد والفضيلة والانسانية ، والخير والوطنية ، أم لم تفرضها . (١)

---

(١) إن اول وزارة فطنت إلى نفع هذه السلسلة ، الاصلاحية القيمة ، التي وضعت لبعث الحياة والفضيلة والنبل ، في نفس كل

٦ – ها نحن أولاء أشرنا إلى النقاط ، الجديرة بالاشارة ، ولم نقم لسواها وزنا ، لأنها من فصيلة النقد الفضولي ، الذي لايعبر إلا عن سطحية في الفكر ، أو شواظ في الصدر ، غير خليق بالاحتفال والعناية

وإذا كان الفنان البارع ، يأبى أن ينقده الا فنّان مثله ، أو يربو عليه ، ليُفيد ويستفيد ، فمن حقنا ألا نقبل نقد من لايستطيع أن يقيم مثل هذا البناء الشامخ ، الذي نقيمه على أمتن القواعد العلمية الصحيحة والادب الفني السامي ، والروح الانساني المثالي وكريم الاخلاق .

وإنا لانجد مثالا بارعاً لوضاعة النقد الفضولي الخاسر ، أصدق من قصة « جحا وحماره » التي وضعها بعض الادباء .

فتاة ، هي وزارة المعارف المصرية ، فقد وافانا في ١٣ حزيران سنة ١٩٤٩ من مديرية إدارة تقرير الكتب المدرسية ، طلب الكتاب ، وإنا نرجو من كل الوزارات في العالم ، التي تعنيها مسألة السلام والمرأة ، أن تتوفر على الدرس والنظر والتمحيص في الكتب التي تهدف إلى هذه الناحية ، إذ تبين لنا بعد طول الاختبار والتجربة ، أن أكثر الكتب التي تذاع ، تجارية تفرض بالوساطات والشفاعات ، بله أنها اقطاعية مجرمة ممزقة .

وهذا لن يكون منا ابداً ، وإنا نعتقد أن الجيد الحسن يفرض نفسه فرضاً ، فما كل كتاب يصدر يجب أن يهمل ، ولا كل كتاب يجب أن يقرّر ، ولا كل مؤلف يرضى أن يريق ماء وجهه على الابواب والعتبات ، وإن كان يؤمن أن مؤلفه يحوى حياة الامة ، ويشتمل على سعادة الانسانية .

«...نزل المسكين جحا عن الحمار، لما أحس النقد يلذعه من هنا وهناك ، وأركب ولده ومشى، ولكن النقد عاد وتضخم حوله، فما وسعه إلا أن يركب معه ، وحين عجز عن الاحتمال ، ونفد منه الصبر ، نزلا معا وسارا خلف الحمار ... !! ساخرين ساخرين ...»

وكم في هذه القصة من عبقرية في تصوير النقد الفضولي، تصويراً فنياً رائعاً ، وهزء بالناقدين الفضوليين ، الذين يجهلون أصول النقد العلمي ، ولا يفهمون مواطن الضعف الفني وقوته ، ولا يعجبهم في كل مجتمع إلا ان يتكلموا ، لاشيء سوى أنه يلذ لهم أن يتكلموا ، هم يعجزون عن حمل السنتهم، فيرسلونها هنا وهناك سخافة وثرثرة .

٧ - إنا نقدم إلى قارئاتنا أحر الرجاء - قبل ان يباشرن في تلاوة فصول هذا الكتاب - أن يتذكرن أننا اشرنا في الكتاب الاول إلى أنهن سيجدننا أعدنا ذكر بعض من سبق من النساء هناك فيخلن ذلك من التكرار الممل ، ونحن ابعد ما نكون عن التكرار وإنا - كما قلنا - نذكر في كل كتاب ، بل في كل فصل الجانب المواثم له ، فقد تكون للمرأة الواحدة، ذات الحياة القوية ، نواح شتى ، فهي بالضرورة تذكر هنا وهنالك، حسب تعدد حيوياتها ، وتسلسل البحوث لدينا ، وارتباطها بموضوعنا الفني الذي نعالجه في الناحية الخاصة به .

٨ - ونحن اذ جعلنا ، أهداف سلسلتنا انسانية محضة ، لانتنكر ولا نحقد على من يجمع شتات الكلمة ويضمد جروح الانسانية بالمودة والاخاء والتسامح ، والتثقيف والمساعدة ، سواء أكان

بين افراد أسرة واحدة أو أسر ، أو بين أهل مدينة واحدة أو مدن،أو بين مقاطعة واحدةاو مقاطعات، أو بين قارة أو قارات ، فهو في عقيدتنا رجل اجتماعي إنساني مهذب ، خليق بالاكبار والتأييد ، إن لم يتخذ ذلك ذريعة ، لتمزيق كلمة الانسانية من طريق آخر ، للتجارة والربح باسمها لغايات شخصية ملعونة ، فهناك الاجرام والخيانة ، وهناك الكفر بالثقافة والعلم والعقل ، ومثل الانسانية العليا ،وكتب السماء والرسل «صلوات الله عليهم »

٩ ــ نحن نعالج تاريخ حياة المرأة،في شتى نواحيها واطوارها، معالجة شاملة، مستقصين كل طبائعها الفطرية وإمكانياتها ، مترفعين عن الانسياب ، في تيار بعض الكاتبين ، الذين يلعبون على حبال المرأة ، للتجارة وهوى النفس ، ويخدعونها عن نفسها أنهم حين يعلنون لها ، أنهم يمنحونها كل الحرية الذاتية ،وكل الانطلاق وكل الاستقلال ، ويرفضون عنها أن تنضوي تحت جدار ، أو تذعن لأية وشيجة ، يفعلون ذلك بوحي اهدافهم الكمينة ، ويلبسون عليها حتى لاتفطن أنهم يشبهون الذي يقف على شاطىء البحر،ويهيب بمخلوقاته جاناً ماجنا : « إلى الفضاء الواسع ، إلى حرية الانطلاق ، إلى التحليق في السماء الصافية إلى . . . » ! ! غير ملتفت إلى كنه الطبيعة الساخر ، وحقيقة الحياة الهازئة ، لأنه فاهم أنه يصطاد .

وإنا سمونا كل السمو عن مثل هذه الاهداف الوضيعة ، وكل رائدنا الحق والخير والفضيلة ، مدركين أن المثقفات العالمات ، والمفكرات الدارسات، اللائي يقدرن موازين كل شيء ،ويضعنها في مواضع نواميسها الطبيعية ، لايجهلن الحقيقة ابداً .

وكم يسرنا أن نصارحهن، أنا كنا أعددنا صحيفة طافحة بأمثال هذه السخافات « المرأة المرأة ، الحرية المطلقة ، لابيت بعد اليوم طيري طيري ايتها المرأة ... !! » وكنا اردنا بها ان نسبق سوانا في اكتساب قلب المرأة الجاهلة، ولكنا الفينا أنفسنا في جمعية للمرأة وسمعنا من أطراف الحديث الساخر عن أولئك المفتونين ما جعلنا نسارع إلى صحيفتنا ونمزقها في جنح الظلام .

وإنا نرجو إلى قارئاتنا حين نعلن هذه الحقيقة، أن يكفكفن من بسمات السخرية لأن إعلانها فيه من المرارة الكثير الكثير

واخيراً نريد أن نلفت نظر قارئاتنا الاديبات، أننا حين نذكر بعض معاصراتنا أو من قبلهن من قريب، « لانحاول من وراء ذلك ما يحاوله بعض الكاتبين عادة ، من صلات وصلات ، لاننا لانعيش على حساب الكتابة والتأليف ، بل بأعمالنا الخاصة ، التي نجد لها طوال النهار ، وشطراً من الليل ، وإنما الذي نحاوله قبل كل شيء وفوق كل شيء ، هو الجهاد في سبيل الحقيقة والواقع ، والدعوة إلى الانسانية والنهوض ، بالمعرفة والعلم والتفهم والتواد بين ابناء الانسانية ، والذي نريده أيضاً، هو إنصاف المجاهدات اللائي قدمن جهوداً مشكورة ، وأعمالاً إنسانية مبرورة ، وغمطهـا حقد الحاقدين وجهل الجاهلين وعدم الانصاف والاعتراف بالجميل .

ونحن لانذكر ذلك قولا ، بل عملاً ، فقد استطردنا في كتابنا « دين ابراهيم » وسواه من مؤلفاتنا ، لكثير من المعاصرين ، في الشرق والغرب ، ولكنا لم نرسل لأحد منهم نسخة واحدة ، ولم نفكر في ذلك

ويشهد الله أننا حين نكتب ما نكتب ، لم يكن ذلك لفراغ ننعم فيه ، أو وقت ميسور نجده ، أو رغبة في التعرف لأحد ، وانما ننتزع ذلك في سبيل المصالح الانسانية العامة ، من ساعات راحتنا القليلة التي تفرضها الصحة انتزاعاً ، ونحن احوج ما نكون لها لو كنا نؤثر شيئاً من الراحة ، ولكننا نعلم أننا في عصر ، من يستطب فيه الراحة ويخلد الى الدعة فقد أفسح طريقاً للقضاء على سعادة الجميع .

وما كانت الراحة تعد جناية منكرة ، يجب على الأمة والدولة أن تناهضها بصراحة وعنف ، في عصر كهذا العصر ، الذي ينتظر فيه العالم الفاجعة الكبرى التي لاتبقى ولا تذر .

واخيراً يطيب لنا أن نعلن قارئاتنا المثقفات الناهضات ، أننا اعتزمنا أن نجعل خاتمة كتب سلسلتنا هذه ، محلاة باصدار كتاب خاص ، في تراجم شهيرات عصرنا المجيدات ، حفظاً لذكراهن من الضياع ، وإفادة للاجيال وأداء لواجب جهادهن واخلاصهن وانسانيتهن ونشاطهن . وإنا نرجو منهن أن يبادرن بموافاتنا بكل الارشادات والمعلومات والوثائق ، سواء عن أنفسهن ، أو عمن يتصلن بهن ، ممن يهمهن أمرهن ، ويرين من الغبن والخسارة اهدار سيرهن

ويطيب لنا أيضاً أن نعلنهن أنه ليس من ديدننا أن نفتن بالمظاهر البراقة الطنانة أو نخدع بها ، وننساق وراءها ، بل كل ما يفتننا ويحفزنا إلى العمل والتضحية والتقدير والاعجاب ، هو الواقع والحقيقة . فأية قارئة قامت بعمل مجيد في المجتمع الانساني

- مهما ضؤل في عينها - فلدينا وثائقه، فقط نستزيد الحقيقة والواقع ثقة ووضوحاً ، وهذا طبعاً لايكون إلا بحسن معونتهن ، وجليل مساعدتهن ، حتى تستقيم التراجم، على أوفى حظ من العلم والتحقيق والفن ، وعلى أوسع ما يمكن أن تكون المعرفة ، مستقصية كل أهداف العصر الحديث . إذ نعتقد أنه من الاجرام، إهمال هذه الناحية ، في تاريخ حياة المرأة العصرية ، التي ادخرت قواها وجهودها ، وكل امكانياتها للجهاد والتضحية والسمو بالتربية المنزلية العالية ، والسهر على تثقيف الاجيال الناشئة ، وإنا سنعنى بذكر سيرهن ، وإن لم تعن بها الصحف المأجورة ، وهذا ما تعاقدنا عليه، وكل قصدنا من وراء ذلك ،أن يكون ذخراً للاجيال واسوة حافزة للقيام بالواجبات .

وإنا نستميح الأخوات النبيلات ، اللاتي نوهن في الصحافة والاذاعة (١) بمنافع هذه السلسلة، إذا نحن تقبلنا ذلك منهن معلنين أن جهادنا وجهودنا ، لم تكن من غاياتها غير جليل الأثر الذي يهمنا جداً تركيزه في حياتهن الكريمة ولكن ما الحيلة ، وشيم الكريمات النبيلات الكرم ، وشيم الأديبات المثقفات تقدير القيم .

---

(١) نجدنا نعلن قبولنا تلك المحاضرات القيمة التي نوهت بها الاديبة المفكرة ، الاخت الآنسة « هنريت سيكسيك » في اذاعة الشرق الادنى ، لأنها جاءت آية على عميق ايمانها بضرورة الاصلاح والنهضة ، وهذا كل ما ننشده فيما نكتب .

المرأة والسلام

السلام هدفُ الشرائع والقوانين ، ورجاء الانسانية الغارقة في دمائها ، تحت زلازل الحروب المدمرة ، وعواصفها المبيدة ، ولهيبها المستطير .

وهل للانسانية من حيـــاة مطمئنة لا تنقض ، وأمن مبسوط لا يطوى ، وعيش خصيب لا يحل ، وسعادة رفافة ذات أطياف فتانة ، وأحلام مسحورة إلا بالسلام ؟

وهل تتفجر الدماء وتتمزق الوحدة الانسانية إلى أشلاء ، إلا من طغيان غريزة حب البقاء . ؟ ، وقديما قيل : « من مأمنه يؤتى الحذر » ، وإلا فالسلام والبقاء شيءٌ واحد ، ولن يكون بقاء بغير سلام .

وفي الواقـع يجب أن نسمي غريزة البقاء ، غريزة السلام ، ولكن الذي أدى بالانسان إلى استعمال غريزة الدفـاع عن السلام ، إلى القضاء عليه ، هي غريزة حب التملك ، طبعاً غير المهذبة ، أو غير المكبوتة ، ولو استطاع الانسان ، أن يهذب طغيان غرائزه الطبيعي ، أو يكبتها بالشرائع والاديان ، لما كان ثمـة حرب ، ولا عدوان ولا أحقاد .

وإذا كان التهذيب الطبيعي غـير ممكن ، لأن أمره عضوي يقتضي تطورات آلاف الاجيال ، حتى يكون ، فان الكبت ممكن دائماً ، وقد كان قبلاً ، أجل كان بالدين

وكم من أخطاء نقترفها ، حين نطلب إلى الغرائز نفسها ، أن تكف عن الطغيان ، مع علمنا أنهـا مسألة عضوية طبيعية ، إنما يجمل بنا أن نفرض هذا الطلب على العقل المربي والفكر الناضج ، على أن قارئاتنا سيجدن توضيح ذلك ، في كتابينا الخامس والسادس ، اللذين خصصناهما لدراسة حياة المرأة في الغرائز والعواطف ، وتربية المجموعة النفسية ، ومدى تأثيرها في إمكان تهذيبها شيئاً فشيئاً على تطور الاجيال .

والذى أخذنا على عاتقنا بسطه هنا ، هو استقصاء تاريخ طبيعة المرأة السلمية ، وذودها عن السلام ، وعملها المباشر فيه ، وإنا نعلنها كلمة صريحة : « لولا تحكم الرجال في نظم التربية ، وفرض قسوتهم في البيئة والمدرسة والمنزل ، بغير رحمة أو هوادة ، لذاقت الانسانية نعيم السلام ، على يد المرأة منذ أجيال بعيدة » .

هـذا العقل الانساني العبقري الاجتماعي ، يعلن في شتى أدواره ، أن المرأة تمثال السلام المقدس ، وأنها إذا لم تبن هي السلام ، في نفوس الاجيال ، فلا سلام أبـدا ، ولا كلام فيه بجدي .

« المرأة هي الانسانية العليا ، والسلام لايكون إلا في جبهتها » (١)

---

(١) فيكتور هيجو

« إن الاميال الطبيعية في المرأة ، يمكن أن تحول إلى الاخاء العام والسلام العام » (١)

« أعد المرأة رمزاً مجسما للسلام والتسامح » (٢)

« أعظم مخلوق هي المرأة ، إذا عرفت قدر نفسها » (٣)

وأقوال الفلاسفة والعلماء والأدباء ، جد وافرة ولاريب أن الوحي الالهي ، أحدث آثاره العالية ، في توجيه العقول إلى أمجاد السلام ، إلى حسناته ومنافعه العامة ، إلى بركاته ونوره ، إلى جليل مكانه وكبير فضله .

وإذا كانت الإنسانية جمعاء ، تعلم يقينا أن السلام سوف يكون عاماً وطبيعياً وحتما في الجنة (٤) ، فان خاتم الانبياء صلوات الله وسلامه عليه ، يفهمنا بطريقة عملية واضحة محسوسة ، أن السلام يمكن أن يكون واقعياً في عالمنا هذا ، وواقعيته على طرف الثمام .

أجل هو تحت اقدام المرأة ، إذا أحسنت تربية الجيل الجديد ، وغرست في نفسه الرحمة والتسامح ، والنزعة السلمية

---

(١) هربرت سبنسر

(٢) بـــوذا

(٣) غلادستون

(٤) قضية الجنة ، أو العالم الثاني ، هي قضية البشرية منذ خلقت ، وقد بسطنا حقيقة الايمان بها واتفاق اهل الاديان جميعا . والفلاسفة رسولهم في سلسلة الوحدة الدينية ، الكتاب الاول «دين إبراهيم»

الكريمة ، إذ يقول : « الجنة تحت اقدام الامهات »

وواضح أن المقصود من الجنة هنا ، السعادة ، وهي لاتكون إلا بالسلام ، لأننا لا نشاهد تحت أقدام الامهات إلا الارض ، وكم من بلاغة رائعة ، ودقة بالغة في التعبير بقوله « تحت .. » إذ فيه الواقع الملموس المحسوس ، وذكر الاقدام يفيد منتهى الطواعية والامكانية ، فما كان تحت قدمك ، فسلطانكَ وإمكانياتك فوقه بلا ريب .

وما خص رسولُ الله ﷺ ، ذكر الأم هنا ، إلا لأن المجد الانساني الخالد ، يتجلى في الأمومة ، التي هي طبيعية لكل امرأة ، والأم بعد ، هي المدرسة الأولى ، التي تهيمن على مجموعة الطفل النفسية ، من قبل أن تفسدها أوضاع التربية ، المنكوسة المهووسة ، في البيئة والمدرسة .

وإلى قارئاتنا نقدم نداء الوحي الالهي للانسانية جمعاء ، في دعوته المقدسة الى السلام العام « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ومحال أن يكون سلام بين البشر ، إذا لم يكونوا مؤمنين بحقيقة التساوي ، في صميم الحياة الانسانية ، كما هو محال أن يكون التعارف المفروض بين الشعوب والأمم ، بغير السلام والثقة والطمأنينة ، وهيهات هيهات ، أن يكون الحرب وسيلة للتعارف والتفاهم والتواد .

نعم ، إن دخول الناس جميعاً تحت راية السلام فريضة

الهية ، على الناس جميعاً « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة » . وكم في البشرية من ظلم وعدوان ، تؤمن بكلام الله ، ولكنها تأبى أن تطبقه عملياً ، وتكبت به غرائزها ، لأنها موبوءة بأحقاد التقاليد ، ووراثات العصور الحجريه ، ومثقلة بالسخافات والوضاعة ، وقليل هم الذين يصنعون السلام بايمان وتضحية ويشيدون بناءه ، ويحبسون أنفسهم لنصرته وتأييده والدعوة اليه . ولقلتهم أشار سيدنا المسيح ، صلوات الله عليه ، إلى انهم أهل البركة واليمن ، أينما حلوا وفي أي مكان نزلوا « طوبى لصانعي السلام » (١)

ولا ريب أن وجود الأنبياء في الأرض ، هو انتصار للسلام ، وقضاء على العدوان والمعتدين ، أما ترى الملائكة ترنمت ليلة ميلاد سيدنا المسيح بقولها « وعلى الارض السلام » (٢) وتراه يقول « سلاماً أترك لكم » (٣) « ليكون لكم في سلام » (٤)

وهكذا كله لا يناقض قوله « لاتظنوا أني جئت لألقي

---

(١) مت ٥ : ٦

(٢) لو ٢-١٤

(٣) يو ١٤ : ٢٧

(٤) يو ١٦ - ٣٣ ، أي في اتباعي والاستمساك بهديي والسير على طريقتي

سلاماً بل سـ ـيفاً » وهكذا قوله (١) « ومن ليس له ـ أي سيف ـ فليبع ثوبه وليشتر سيفاً » (٢) ولا سماحه لتلاميذه أن يخرجوا إلى جبل الزيتون ومعهم سيفان ، ولا إجازته في أول الأمر لحواريه القديس بطرس أن يضرب بالسيف . ولولا أن سيدنا المسيح تدارك الأمر حين رأى أعداءه كثراً ومسلحين بعد أن ضرب بطرس ، فأمره بالكف ، وسارع إلى رد أذن عبد رئيس الكهنة التي بترت ، لقضوا عليهم ، ولا قوله « أما أعدائي اولئك ـ يعني اليهود ـ الذين لم يريدوا أن أملك عليهم ، فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي » (٣)

أجل ، إن هذه النصوص ، وسواها على كثرتها في العهد الجديد ، لها مواردها الخاصة ، وملابساتها التي اقتضتها ، ومناسباتها الخاصة ، بل لايكفون عن محاربته ، ظلما وعدوانا ، وإن كان في ذلك هلاكهم « كالباحث عن حتفه بظافه » فأمثال أولئك المعتدين يصدون بالقوة ، لا للانتقام والتشفي من الرسل « لا سمح الله » ولكن للتأديب وكف الأذى ، والمحافظة على السلام وبسط ظله .

وكم هم ظالمون ، أولئك الذين لايكلفون أنفسهم ، أن يفهموا موارد النصوص الدينية وأسبابها واتجاهاتها ، فهماً

---

(١) مت ١٠ ـ ٣٤

(٢) لو ٢٢ ٣٦ إلى ٥٣

(٣) لو ١٩ ـ ٢٧

علميا عميقاً مستوعباً ناقداً ، بل يكفرون بها ، ويتهمون الرسل ، صلوات الله عليهم ، بقصد الخداع وحجز الحريات وما علموا أن وهن معرفتهم وضيق تفكيرهم وتعرج فهمهم والتواءه دون المقاصد الانسانية السامية ، التي تهدف اليها النصوص المقدسة ، هو الذي حال مابينهم وبين معرفة الحق والهدى .

ومثل هذا العلم الناقص المبتور ، والفهم الفج الحاذ ، هو الذي جعل بعض المطالعين ، ينسون مؤتمرات قريش (١) لاغتيال صاحب الرسالة ﷺ ، مع علمهم أن يده ويد أصحابه مكفوفة عن أن ترد عدوانهم بالمثل ، بل نسوا أن الاذن بقتالهم ورد عدوانهم ، لم يجيء إلا بعد أن تضخم الامر وربا ، وأصبح خطراً على مصير الدعوة الالهية وابلاغها للناس .

أجل لم يأت إلا متأخراً ، أي بعد الهجرة « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » (٢) وجاء مقيداً بالمثل ولدى العدوان فقط « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا » (٣) على أن الصفح والمغفرة هما المقصودان في الوحي الالهي على كل حال

---

(١) سورة الانفال آية ٣٠ راجع للتفاسير

(٢) سورة الحج آية ٣٩

(٣) سورة البقرة آية ١٩٠

« وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فأجره على الله ، إنه لايحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الارض بغير الحق ، اولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الامور » (١)

وهكذا ترى رسول الله ، يقاتل في موطنه ، وتقتل أصحابه ، ويشج وجهه وتكسر رباعيته ، (٢) فلا يحقد ولا يلعن ، بل يرفع يديه إلى السماء حين طلب إليه أن يدعو عليهم قائلا « اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون » .

هؤلاء هن قارئاتنا ، رأين أن الاديان تقيم دعائم السلام ، وتدعو اليه في صميم تعاليمها ، كما تنزل اللعنات على الظلم والظالمين ، الذين يكونون سبباً في إراقة الدماء والخراب والدمار ، وتتوعدهم بسوء المصير ، في الدنيا والآخرة ، ولا ريب أن للمرأة إيمانها العميق بجلال الوحي الالهي ، والدعوة إلى السلام ، باخلاص وصدق وجهاد وتضحية ، ولا ينقص من قدر المرأة ، أن جنوحها للسلام والخير والهدى طبيعي في أصل تكوينها ، بل غاية في الطبيعية — كما يقولون لان هذا مما جعلها الامل المنشود ، والرجاء الفذ ، لحقيقة السلام في كل العصور ، وهي لذلك ، تستمتع بالتاريخ

---

(١) سورة الشوري آية ٢٩ إلى ٣٠

(٢) آل عمران ١٥٣ راجع تفسير هذه الآية بجميع التفاسير

منذ أقدم الاجيال .

فهذا السفاك الطاغية الحقود « هيرودس » الذي كان أكبر عدو للسلام ، لم يدع بيتاً في « فلسطين » إلا وأراق فيه الدماء ، وما رأى التاريخ قبل « نيرون » طاغية جباراً يلذ له الفتك ، حتى بعد هلاكه مثل « هيرودس » الذي يوصي وهو في سكرات الموت ، أن يقتلوا كل من في السجون بعد موته ، ليجعل يوم هلاكه ، يوم حزن شامل ، وبفقدهم الفرح الذي لا بد أن يكون في كل بيت ، ولولا أن تداركت الامر حال موته ، اخته المهذبة الاديبة نصيرة السلام ، وعميدة الضعفاء ، وأصدرت أمرها باطلاق جميع المسجونين ، لما كان ليوم موته ، ذلك الفرح العظيم الذي فاض مزدوجاً في كل بيت من بيوت فلسطين . (٢) فهذه امرأة واحدة استطاعت أن تنقذ جموع أولئك المسجونين من الهلاك المحقق ، وأن تضاعف مسرة الضعفاء الموتورين في البلاد المقدسة .

---

(١) المشهور أن نيرون قاتل بطرس وبولس ، ولكن ابا الريحان البيروني يرى قاتلهما « كلوديوس » ، راجع تاريخه ص ٩٣ طبع لا يبسك عام ١٩٢٣ ، وتاريخ الاصلاح اللوثري ينكر ذهاب بطرس لروميه ، ويراه ذهب لبابل راجع ص ٨ و ١٨ ج ١

(٢) هيرودس الكبير ، هو الذي أمر بقتل الاطفال استناداً لرأى مجوس الشرق ، كي يشمل القتل المسيح ، راجع ترجمته بتوسع في قاموس الكتاب المقدس ٢-٤٩٥

وهذه ابنة أوس بن حارثة الطائي ، الفتاة البدوية الفطرية التي لم تدخل مدرسة ، ولم تتلق علماً ، ولم تعتنق ديناً ذا تعاليم سامية ، بل كانت تعيش في جو جاهلي صاخب ، مليء بالتنكر والتباغض ، والشتات والتفرقة ، تأبى لها فطرتها الطبيعية السامية ، بعد أن اقترنت بالزعيم الثري « الحارث بن عوف » أن تدعه ينعم بمفاتن الزواج ، ويستنيم إلى الدعة والطمأنينة ، والحرب الضروس تأكل جاهلي العرب أكلاً ، وتحطمهم تحطيماً وتقضي عليهم تباعاً .

ها هي ذي تقول له ، بكل صراحة وجرأة ، بعد أن رفضت ، أن تضع رأسها على وسادته ، قبل أن ينهض بالسلام بين المتقاتلين : « والله لا يجمل بك هذا ، والدماء تسيل والنساء ترمل والاطفال تيتم ، إذهب فاصلح بين عبس وذبيان تحرز الشرف وحسن الاحدوثة » . وهكذا كانت هذه الفتاة البدوية ، ذات الفطرة السامية النبيلة الوادعة ، منار هدى وعلم وخير وسلام إذ بسببها قضي على حرب دامت اربعين عاماً .

وقد تحمل زوجها الديات ، بعد أن أتم الصلح (١) وكفكف الدماء ، ورفرف طائر السلام وتذوق الجميع لذة البقاء والامن والاخوة ، وشيئاً من معنى الانسانية ، حتى أن الشاعر الكبير زهير بن أبي سلمى ، بارك هذا العمل المبرور

---

(١) محاضرات الخضري ١-١٩

الخالد في معلقته .

تدار كتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وإذ كان ذلك السلام ، نتيجة تأثير فتاة من بنات الجاهلية في زوجها ، فكيف يكون حال الانسانية ، لو اجتمع توجيه كل نسائها ، إلى جلال السلام وتأييده في العالم ؟ . نؤكد أنه لن يظل ثمة شبحٌ رهيب مدمر لحرب .

وهذه الهاشمية النبيلة « أم هاني ابنة ابي طالب » ، تجير عدوا لدودا لابن عمها رسول الله ، وهي تعلم أن ضيق عطنه ، أفضى به إلى إعلان حرب على الدعوة الاسلامية ، وأنه لم يدع شراً أو نازلةً استطاع أن ينزلها بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، إلا فعلها . تجيره على الرغم من أخيها البطل العظيم علي بن ابي طالب عليه السلام ، فيكبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، هذه الروح السامية الكريمة ، التي يرجوها لكل امرأة في العالم قائلا للانتساء والتشجيع « أجرنا من أجرت يا أم هاني » . (١)

وهذه عاتكة بنت يزيد ، زوج عبد الملك بن مروان تثور ثائرتها ، غير مكترثة لسخطه ، ولا حاسبة لانتقامه أو بطشه أي حساب ، على ما تعرف من إسرافه في الانتقام والبطش تثور محتجة ساخطة ، حين تراه يأمر بنصب رأس مصعب بن الزبير في شوارع دمشق ، وتأمر بانزاله حالاً قائلة : « هذا

(١) اعلام النساء ٣-١١٢١

بغي وعدوان » وقد فهمت أن عملا بربرياً كهذا يورث الأحقاد والضغائن ويشعل نيران الفتن والحروب ، ويزلزل السلم وينذر بانطفاء حياة الدولة .

نعم هي أموية صميمة ، وابنة يزيد ! ! وتعلم أن مصعبا هو العدو اللدود ، الذي يعمل لهدم الدولة وا تلاب الملك ، والفتك بأسرتها ، ولكن ما حيلتها والمرأة في كل عهد ، وفي كل بيئة ، وفي كل دين . هي هي ، حمامة السلام المقدسة ، التي ترفرف على سخافات البشرية وأحقادها ، وخصوماتها الوضيعة ، بأجنحة السلام البيضاء المشعة حنانا وإنسانية وتسامحا وحبا (١)

وهذا حاكم مقاطعتي الجزيرة وشاطىء الفرات الشامي ، وقائد الطلائع المرابطة على تخوم الروم « جبال طورس » ، عبد الله ابو الحسين الانطاكي الأموي ، يركب جواده مرة ليتفقد النواحي ، ويرصد الابعاد بنفسه ، فيتوغل به حب الاستطلاع والكشف والمغامرة ، إلى أحراج الروم ومروجهم وأرباض مدنهم ، وينزل في مرجة ليستريح من الجهد العنيف ، ويلذ له منظر بقلة ، فيقتطف بعض وريقات منها مستطيبها ، ولكنه لم يلبث غير قليل ، حتى تهالك في مكانه ، ولم يستطع التماسك لانفراط معدته ، فخشي الهلاك إن لم يسارع في العودة ، وما كاد يمتطي جواده ويسير بنفسه قليلا ، حتى ارتمى عليه ، وأمسك برقبته ، ولم ير نفسه إلا في أحد أديرة

---

(١) راجع ابن الأثير ٤-١٦٢

الروم المنتثرة هناك ، وحوله جمع من الراهبات يقمن على معالجته وتخفيف آلامه .

وهكذا ظل أبو الحسين في ذلك الدير مغمورا بالعناية والتلطف أياماً ثلاثة ولم تعلم القيادة الرومية بوجوده ، مع علم الراهبات به ، فهو معروف لدى الجميع بغزواته ، ولولا مقدم احد قواد الروم إلى الدير ، لما علم به أحد ، ومع ذلك فقد أخفته أولئك الراهبات المسالمات المحسنات ، وبالغن في إخفائه مما جعل القائد الرومي ينصرف مغيظاً ، (١)

فكم تكشف لنا هذه القصة من حب السلام المتغلغل في قلب المرأة ، فهي تضحي في سبيله ما تضحي

وهذا تاريخ طلائع الدولة العباسية ، يرسل على ذكريات أم سلمة المخزومية ، أطيب حمده وإعجابه فكم مرة كفكفت يد زوجها « أبي العباس السفاح » ، وحذرته عاقبة الدماء التي يريقها ، ولولاها لما علم إلا الله ما كان يتم على يديه من ضحايا ، إذ كان مستعداً ، بطبيعته القاسية الجبارة ، وسوء نيته للفتك والبطش . (٢)

وهذه السيدة « لبيبي » زوجة الفاتك الطاغي ، « تيمور الأعرج » ، تأبى كل الاباء ، أن تنعم بطيب العيش ، ولذة السلطان والملك ، ودماء ضحايا زوجها تسيل ، فتأخذ في

---

(١) كان ذلك عام ١٢٢ هـ . أبن الاثير ٥-١١٧

(٢) وظائف الاناث ١٥ والدر المنثور ٥٨ ، وقصص العرب ٢-١٥٥

إسداء المبرات ، وتقديم الديات ، لكل من فتك به زوجها ظلما وعدوانا ولا ريب أن روحها السامية هذه المتسامحة ، البرة اليقظة الحرة ، هي التي ذللت نفسيات قومها المتحجرة الحمراء ، وأعدتها لاعتناق مثل الانسانية السامية العليا ، التي أوحاها الله إلى خاتم أنبيائه . كما وجهتهم عمليا لفهم اخطائهم ، في إصرارهم على عداوة هاتيك المثل ، التي ما اوحاها الله ، إلا لاسعاد أمثالهم وتهذيبهم ، والسمو بهم إلى الانجاد ، والانسانية والمعرفة والتسامح والانطلاق ، من ظلمات التقاليد الوثنية الرعناء ، شأن الله في وحيه كافة .

وكم حفظ الدهر لهذه السيدة من يد ، حين جعل قبرها قدساً من الاقداس ، يزار في « سمرقند » حتى اليوم (١)

وهذا زعيم من زعماء حلب ، ينفث عليه الملك الناصر ، مكانته المرموقة ووفرة أتباعه ، فيصادر أمواله ويحاول البطش به ، فيفر هو ورجاله إلى الزعيمة البدوية المشهورة « أم الفضل زوج الامير مهنا بن عيسى » مستنجداً مستجيراً ، فما تكاد تراه وتعرف الحادث ، حتى يرفرف في فؤادها طائر السلام ، فتطمئنه بالنصرة والمعونة وتحسن وفادته وإكرامه ، وما يكاد يثوب زوجها مساء حتى تفاجئه بطلب التجهيز ، والسير حالاً إلى حلب ، وتخليص أمثال هذا الزعيم المظلوم ، بيد العسف والاستبداد وإقرار السلام ، فينادي ابن عيسى

---

(١) مركز المرأة في الاسلام ١٢٧

في جيوشه ورجاله ، ويجتمع عليه منهم خمسة وعشرون الفاً ، ويحاصرون حلب ويتوعد الملك بالحرب إن لم يـــنزل على إرادته ويكف عن الظلم والاستهانة بالشعب ، ولـكي يلقي الرعب في قلبه ، يأخذ في حرق باب القلعة ، فلا يسع الملك إلا ان يسارع في إجابة الطلب ، ويصدر عفوه عن الزعيم ، ويرد له امواله المصادرة . (١)

كل ذلك قـد كان بتوجيه ام الفضل ، وكبير عنايتها بالسلام ، والانتصار للمظلومين ، والضرب على أيدي الذين يشعلون أسباب الحروب والفتن ، ويحرصون على سلامة انفسهم ويجعلون سواهم لها وقودا ورماداً .

وهذه السيدة الفاضلة والزعيمة اللبنانية المفكرة « نظيرة جنبلاط » أحست أن في لبنان أصابع دخيلة تحاول أشعال الفتن بين أهله باسم « المسيحية والمحمدية » والقوم في عصر النور والعلم . فقامت في بلدة « المختاره » (٢) وأصلحت ما بين الامة الواحدة ، بعد أن كاد الاشقياء يشعلون بين طوائفها الفتن الرعناء وكانت برداً وسلاماً على الشعب اللبناني المجيد

وقد تكبت التربية الفاسدة الضيقة ، بأحقادها وظلماتهـا وصغارها ، توازع السلام في نفس المـرأة ، فتثور وتنتقم وتبطش وهي تلبس رداء غـير ردائهـا ، وتمثل دورا غير

---

(١) مهذب رحلة ابن بطوطه ص ٦٢

(٢) مجلة « المرأة الجديدة » ٢-٢٩٣

دورها ، ونفسية غير نفسيتها ، وتمسي حينئذ أداة شر وإفساد ولكن قارئاتنا لايجدن ذلك في تاريخ المـــرأة إلا صدفة منكرة ولطخة عابرة .

هذه « البسوس ابنة منقذ التميمية » الشاعرة الحماسية ، استطاعت أن تشعل بأبياتهـا حرباً عوانا استمرت أربعين عاماً لابين شعبين مختلفين من أبنـــاء الانسانية ، ولا بين فريقين من أبناء الشعب الواحد ، ولا بين أسرتين من أبناء القبيلة الواحدة ، بل بين أبناء أسرة واحدة ، اسعرت الحرب بينها إلى أن تناولت القبيلة فالقبائل .

أجل ، أشعلتها ، وما اشعلتها إلا لأتفه الاسباب وأحقرها اشعلتها لناقة لها قتلت !! ها هي ذى توقد شرارة الفتنة الاولى بقولها :

لعمرك لو اصبحت في دار صاحب
لما هين سعد وهو جـــار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غربـــة
متى يعدُ فيها الذئب يعدُ على شاني
فيـا سعد لاتغرر بنفسك وارتحل
فانك في قـوم عن الجار أموات

وقد فطن الناس إلى شرها ، وشؤم طالعها ، فضربوا بها المثل في شؤم الطالع وقالوا : « أشأم من البسوس » (١) ولعلك لاتلمح

---

(١) كتاب « الامثال » للميداني ، حرف الهمزة

شبحاً بغيضاً جهنمياً بين بنات حواء ، كانت شراً وبلاء على الانسانية ، من هذه المرأة الشريرة .

والانسانية مدركة منذ أسحق أجيالها ، أن المرأة ملاك السلام ، وطيف تمثاله ، وترنيمة تحنانه ، وآية هداه ومضرب أمثاله ، فهم يصورونها إشعاعاً للعقل وأحلاماً للرحمة المجنحة .

وقد ظلت هذه العقيدة ، تهيمن بواعثهـــا في مكامن الوراثات ، وتنتقل من جيل إلى جيل ، حتى أن ملوك مصر ، في عصر المماليك ، كانوا إذا اصدروا حكماً بالاعدام ، على مجرم أو فاتك ، وتيسر له مس ثوب امرأة من نسائهم حرم إعدامه ، (١) كانما مسته بركات السلام ، وأظله طائر الامن .

وشاهدنا في أسبانيا ، الملك « جاك الثاني » يفطن إلى قداسة المرأة متأثراً بالعادات العربية ، فيصدر أمره محرماً أن يحجز الرجل الذي يسير بجانب امرأة ، مهما كانت جنايته ، إلا اذا كان فاتكاً خطراً ، إذ إمساكه حينئذ ، من أسباب الامن والسلام . (٢)

والتاريخ الاوربي ، طافح بأمجاد النساء السلميات العظيمات قديما وحديثا ، ولو طاوعنا أنفسنا واسترسلنا مع إعجابنا بهن ، وحماستنا لهن ، لالتهم فصل السلام هذا ، كل الكتاب .

---

(١) كتاب « لمحة عامة إلى مصر » تأليف ا. ب. كاوت بك ١٢١ .

(٢) المرأة في التمدن الحديث ص ١٧

وحسبنا أن نكبر الملكة « فيليبا » زوج الملك « ادوار الثاني » وموقفها السلمي العظيم ، بعد حصاره مدينة « كاليه » الفرنسية ، حصاراً خانقاً جباراً ، وبعد رفضه أن يفك حصاره إلا بتسليم ستة اشخاص ، من عيون زعمائهم ، تأديباً وزجراً لهم ، وقد تطوع خمسة من الزعماء المخلصين لافتداء المدينة بأنفسهم ، أما السادس ، فقد اختاروه بالاقتراع ، فما كان من « فيليبا » حين اصدر زوجها أمره باعدامهم ، إلا أن ثارت ثائرتها ، وعارضت محتجة ، بأن رجالاً شرفاء يضحون بأنفسهم في سبيل إسعاد الجماعة ، لخليق بهم الاكبار والاجلال وكان اطلاقهم ، وإرسال ظلال السلام وإطيافه عليهم ، وعلى المدينة ، إشعاعاً من أضواء روحها الكريمة ، ونزعتها السلمية الخيرة ، وسمو مثلها الانسانية العليا . (١)

ولم تكن « كاترينا » زوجة « بطرس الأكبر » بأقل من « فيليبا » عقيدة بجلال السلام ، وضرورته للحياة الانسانية ، ومقتها للطغيان ، ونفورها من إراقة الدماء ، مهما كانت الاسباب قانونية مبررة .

انظر اليها ، وهي تناقش زوجها الأمبراطور بجماسة وصراحة ، لدى محاولته تصديق حكم الاعدام ، على زعماء المؤامرة العشرين ، الذين فشلوا لدى محاولتهم اغتياله ،

---

(١) كان الحصار عام ١٣٢٧ ، ابان حرب المائة ، راجع كتاب « سعادة الزوجين » ص ١٥٩

وقد أمسكوا . وهي تقول ، ممسكة بيده : . ماهؤلاء بظالمين فعلاً ، وإن قصدوا إراقة الدماء ، ! ! لأنهم لم يتمكنوا من ذلك ، فان فعلت أنت ما عجزوا عن تنفيذه ، كنت الظالم في الواقع ! . تفكر ملياً ، أما ترى نفسك بجرة قلم ، هدمت عشرين أسرة وما ورامها ، بقتلك هؤلاء .

ما انا بظالم ، إن القضاء العدل أدانهم ، وما في إدانة القضاء العدل من ظلم .

لا لا ، إن إدانة القضاء لاتكون قانونية نافذة ، إلا بتصديقك أنت ، فانت المسئول الاول عن إعدامهم ، وهيهات هيهات ، أن تشوه جمال عدلك الانساني ، بدم قوم أجرموا نية لا عملاً .

وهنا يهتاج الامبراطور في وجهها ساخطاً ، ويضرب المرآة بجمع يده فيحطمها ، ثم يهدأ فتقول له :

إنك بغضبك هذا ، شوهت قصرك ، وهو خير الف مرة ، من تشويه ملكك ، وحينئذ يصدر عفوه عن المجرمين ويسمح باطلاق سراحهم ، فيقف التاريخ المجيد ، يسطر هذه الحادثة السامية ، في أرفع صفحاته بأحرف من نور ، نقرؤها إلى اليوم باعجاب مرددين « عاش السلام وعاشت ذكرى كاترينا للسلام » (١)

---

(١) هي التي غيرت بدهائها مجرى الحرب الطاحنة المستعرة بين روسيا وتركيا عام ١٧١١ ، راجع كتاب سعادة الزوجين ١٥٧

المرأة والمنزلة الاجتماعية

لم يكن بين الذكورة والأنوثة في صميم نواميس الوجود من تفاوت ، وهكذا لم يكن بينهما أيضا من تفاوت في صميم الوحي الالهي المنبثق عما انبثقت عنه تلك النواميس . وإن يكن هناك من تفاوت ، فانما هو في التقوى ، والتقوى عمل اختياري محض ، وحلية ميسورة للجميع ، ما دامت هي صدق الأخذ بهدى الوحي الالهي ، والجد في الوقاية من آفات الاجتماع ، وسوء الخلق ، وضعف الارادة ، والذاتية البغيضة « الانثرة » .

ولعل قارئاتنا المتعمقات في الاطلاع ، يتصيدن شيئاً من التفاوت ، في بعض الاديان العريقة في القدم ، فيخلنه سقوطاً بمنزلة المرأة الاجتماعية من الوحي ، وما هو إلا إصلاح تطوري ، وسموٌ تدريجي ، جاء به الوحي الالهي حسب تباين البيئات ، ثقافة وحضارة واستعداداً وأعصراً ، إذ محال أن يكون الوحي بعيداً عن واقع الحياة وإلا أصبح أحلاماً طائرة ، وخيالات سارحة . ومن هنا يدركن ، أن ما يخلنه سقوطا بمنزلة المرأة في بعض شروح الكتب المقدسة إن هو إلا إصلاح لسقوط أسطوري كان من قبل الوثنيات ، على أن قارئاتنا يدركن أن بعض أساطير الوثنيات ، تسربت واندست في هاتيك الشروح ، حتى خيلت لبعض الدارسين السطحيين

الذين أتوا بعد ذلك بأجيال أنها منها ، وما هي منها في شيء

وأقربُ مثل تجده قارئاتنا ، هو الاعتقاد السائد في بعض الاوساط السطحية ، أن العهد القديم أباح التضحية الانسانية كالوثنية ، حيث جاء في سفر القضاة (١) أن القائد الاسرائيلي « يفتاح » ضحى بابنته الوحيدة لدى انتصاره على العمونيين وفاء لنذره ، وما ذلك من الوحي الالهي في شيء إن هو إلا نذر خاطيء علق في نفس يفتاح من مجاورة الوثنيات، (٢) وما ذكره في العهد القديم إلا للتاريخ . على أن الله عرف البشرية عمليا ، منذ أربعين قرنا ، بقصة إبراهيم المشهورة لدى تضحيته بالكبش فداء لولده ، أن الانسان لا يضحى به أبدا ، وتضحيته كفر وإثم كبير .

وإنا نرجع بقارئاتنا القهقرى ، إلى عهود الامم القديمة ، ونطلب اليهن أن ينعمن أنظارهن في بقايا الديانة الادريسية وما قبلها ، بين الآثار المنقوشة في أعماق نواميس مصر والصين واليونان فانهن يجدن أن المرأة ـ على الرغم من طفيليات الوثنيات والتقاليد الطامسة ـ تستمتع بالمنزلة الاجتماعية السامية استمتاع الرجل من كل وجه ، ذلك لان الوحي الالهي هو هو ، في كل

---

(١) ١١ـ٣٠ ونساء الكتاب المقدس ٣٨

(٢) كل الامم المجاورة للاسرائيليين ، كانت تقدم الاضاحي البشرية لاصنامها كعشتاروت وأدونيس وسواهما ، كما سيأتي تفصيل ذلك في كتابنا « طفيليات واساطير »

الاجيال والعصور ، وهو يعبر دائماً عن سر الارادة الالهية في كنه الخلق . وما من تفاوت في الخلق وجودا وعدما ، ولا في مصايره بالنسبة لوضعية النواميس ، لدى الارادة الالهية (١)

وعلى هذا فكل ما نكشفه في غيوب النواميس الكونية نستجليه في صميم الوحي الالهي . فاشتراك الذكورة والانوثة ، سواء اكان في عالم الذرة ، أو في ما فوقه من عوالم ، يظهر الوجود في غاية كماله ، بالنسبة لملابساته وقيامه بوظائفه المشتركة للابقاء على الحياة الانسانية العالية ، وتطور الوجود الكلي .

وهذا خاتم الكتب السماوية ، القرآن المجيد ، يعلن ذلك بصراحة تامة « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » (٢) « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، (٣) وبثّ منهما رجالاً كثيرا ونساء » (٤) فهي هو .. الوحدة ـ هذا هو السر وهذا هو الناموس .

---

(١) من أحب أن يتوسع في وحدة المقاصد الالهية الموحى بها إلى رسل الله كافة ، منذ أقدم الازمان الى اليوم ، فليراجع كتابنا « دين ابراهيم » وما يليه من أجزاء سلسلة الوحدة الدينية في العالم

(٢) الملك ٢

(٣) إي من جنسها فحواء من جنس آدم لا من ضلعه كما حقق ذلك صاحب المنار . راجع كتاب « تستطيع ان لا تمرض » للدكتور عطوى المترجم عن الانكليزية ص ٩

(٤) النساء ١

وها نحن أولاء، نحس أن قارئاتنا يهن بنسا متساءلات إذا كان الأمر كذلك ، لاتفاوت أبدا في منزلة المرأة الاجتماعية ، لافي كنه النواميس ، ولا في روح التعاليم الالهية فما هي الاسباب التي جعلت المرأة في معظم الاجيال القديمة ، وبعض الحديثة ، تنحط هذا الانحطاط الذي لايعدو أن يجعلها في نظر الجماعة أكثر من آلة ؟ أواه ، ما هي الاسباب التي جعلتها في بيئة تقتل ويهدر دمها ، وفي أخرى لاتملك حق صيانة عفافها ، وفي ناحية تحرم من الميراث ، بل تكون هي بعض الميراث ، وطوراً لايعترف الزوج بأثره في إنبات الذرية إلا إذا لذ له ذلك ! ! وبالتالي لايكلف نفسه بأية مشقة تجاهها ، ولماذا سلب حقها من السماء في شعب ؟ ولماذا قيل عنهـا شيطان ؟ وعلى م تحرق إذا مات زوجها ؟ أو تذبح على رمسه ! ولم تكون لدى قوم ذليلة ملعونة إذا لم تحمل ؟ ولدى آخرين تغرق وحدها إذا أثمت ، ولم تبرأها الآلهة المزعومة . (١)

أوليس مصدر ذلك كله الاديان والنحل ؟ ! فأين هي كرامة المرأة ومنزلتها الاجتماعية ، التي تتغنون بأقداسها في سلسلتكم هذه ؟

مهلا ، مهلا ، يا قارئاتنا العزيزات . الا إن الذي عناكن

---

(١) هذه بعض الأمراض التي حطت من المثل الاعلى الذي جاء به الوحي الالهي في الاديان ، وسيمر بك ذلك في مواطنه من هذه السلسلة

وأشعل في أنفسكن حماسة التساؤل ، وجعلكن تثرن مغيظات محنقات ، هو ما أغاظنا وأثارنا من قبل ، كم من حقوق هدمتها البشرية شر هدم ، وكم من مثل عليا وطئتها تحت أقدامها ، بالله قلن لنا ، متى كانت تقيد أعمالها بتعاليم الرسل ولا تنصرف عنها جائرة طاغية ؟ ! إذن فلا تستغربن إن رأيتن هـاتيك التعاليم المقدسة ، تدفن في أسداف الرموس الاثرية ، وتدفن معها منزلة المـرأة الاجتماعية ، وتصبح بقسوة التقاليد ورعونة الوثنيات ، وحطة الاخلاق على الحـال التي ذكرتن ، وهل كانت تستطيع المرأة أن تستنشق عبير الحرية إلا في بواكير الكتب المقدسة وإشراقات أصباحها ، ثم ماذا ؟ ظلام ، ظلام ، ! وما زال الحال كذلك ، تتأرجح الشعوب بين الاحتفاظ بسمو منزلة المرأة الاجتماعية — في إبان الوحي — وبين تهالكها في التقاليد والأوضاع المزرية القاتلة ، وأغلالها الموصدة لدى الانحراف عنه ، حتى نادى منادي الاسلام ، بآياته البينات المعجزة الخالدة ، واستعاد للمرأة كامل حقوقها وكبير منزلتها الاجتماعية محتفظاً بكل كنوز الوحي ، وما منحها إياه الرسل من قبل ، وذاد عنها آثام الطغمة الاشرار ، وضرب عباد التقاليد المهاويس ضربة لم تقم لهم بعدها قائمة .

ولعل بعض قارئاتنا المثقفات ، يسمعن من بعض صغار الطلبة المسمين ، ان الوحي الالهي حط من قيم المـرأة ، فرجاؤنا أن لايتعجلن في الرد عليهم ، لأن عذرهم واضح وهو ضيق الثقافة ونزر الاطلاع والدس الذي منوا بـه من قبل

الرجعيين المأجورين .

على أننا سنستقصي في كتابينا الخامس والسادس ، كل شرائع الوحي ونقابلها درساً ونظراً ونقداً ، بما لدى البشر من تقاليد وضيعة أو أساطير وثنية ، كي نقفن على كنه الحقيقة ونفس الواقع ولا تخدعن بتوافه كتابات السطحيين والذي يعنيكن الآن بعد ما قدمنا من تحليل واستنتاج فرضه البحث ، أن نتناولن بحوثنا هذه منجمة على العصور التاريخية .

عصور ما قبل الهجرة

نعتقد أن قارئاتنا ، إذا نبشن دفائن التاريخ القديم ، وغربلن منزلة المرأة الاجتماعية ، بين ركام أنقاضه ، يجدن عجبا ، يجدن قوة ومجدا ، يجدن منزلة المرأة فاقت كل منزلة ، وذلك لأن الوحي منذ تلك الحقب السحيقة ، السحيقة ، أي منذ عهد إدريس وما قبله وهو يركز مثله العليا في المجتمع البشري ، وينهض بمكانة المرأة ومنزلتها الاجتماعية نهوضه السامي الرفيع ، ولعل قارئاتنا تستولي عليهن الدهشة حين يشاهدن الاجيال التي طرأت عليها الوثنيات ، فألهت كل شيء من إنسان وكواكب وجماد وأرواح . . . بالغت وغالت في المبالغة ، حتى لم تعد الأرض على رحب سهوبها وامتداد آفاقها خليقة بكل أمجادهن في نظرها ، فوثبت بهن الى السماء وأنزلتهن منازل الالهة ، ولا يعجبن إذا رأين ذلك من

ذلك الاجيال القديمة ، فأن الانتكاس عن المثل الأعلى المنزل من السماء صعودا أو هبوطا ، كان في الأجيال القديمة كحجر الرحى لايستقر على حال .

على أن اكثر ما كان الانتكاس في الهبوط ، ولكن الحضارة والمدنية أحيانا تجعل الانتكاس الصعودي ، وكلاهما موت وهلاك للجماعة وخروج عن طبيعة الاشياء وكنه نواميسها المفروضة لها ، كالذي يريد أن يسمو بالسمكة فيخرجها من البحر فتموت ، أو ينزلها في أعماق الوحل فتموت .

وقارئاتنا إذا راجعن موسوعات الأديان القديمة ، ومعلمات الامم الحديثة ، يجدنها طافحة بأسماء النساء اللاتي المهن في المجتمعات القديمة أمثال « معات ونوت وحاتحور وإيزيس وحكت وبوتو . . . لدى المصريين ، (١) ونيات لدى البابليين (٢) وموكامي لدى اليابان (٣) ومي لنغ شي لدى الصين(٤) وأفروديت لدى اليونان (٥) وفاطمة بنت أبي مسلم الخراساني لدى الخرميين . (٦)

---

(١) تاريخ التمدن المصري٣٩-٥٤ ومصر القديمة ٢-٦٩ و١-٢١٤

(٢) و (٣) كتاب « الله » للعقاد

(٤) المرأة في الاسلام ص ٣٠

(٥) مصر القديمة ١-٢٠٨

(٦) نسبة إلى العقيدة الباطنية الخرمية التي تعتقد ان الله روح يحل في الانسان،ابن الاثير ٥-١١٩ ومرض أن الله روح يحل في -

وقد تخيل بعض الباحثين ، أنهن رموز لما أومئ اليه من عدل وجمال وخصب وعفة وسعادة ونسيج وثروة وزراعة . . لانساء عشن حقيقة وكن كذلك ، والواقع أنهن مثلن تلك الادوار التي ألهن من أجلها في حياتهن أروع تمثيل وأفتنه ، فلما توفين عظمتهن الاجيال وبالغت في تعظيمهن ، وعلى تداول الحقب الهتهن كدأبها في تأليه كل شيء تنتفع به أو تخشى شره ، وأقرب مثل ما تشاهدته اليوم من وضع الملكات في أوربا للجمال وسواه ، غير أننا لانغالي في هذه العصر ، وفي تلك الاعصر المغالاة عادة مشتهاة ذائعة

وإذا تراجعت فارثاتنا إلى العصور التي تلت التاريخ المصري القديم ، وأشرفن على بني إسرائيل في مصر أو صحراء التيه ، وجدن مريم ابنة عمران السيدة الصالحة البرة ، التي نوه الله بذكرها في القرآن ، ومجدها العهدان ، وجدنها سامية في منزلتها الاجتماعية ، سموا يفتخر به مدى التاريخ وأي منزلة أجل من المنزلة التي افضت اليها حتى اطلقوا عليها اسم « مريم النبية »،(١) وما نالت تلك المنزلة التي بلغتها إلا بجدارة واستحقاق ، بعد أن شاركت قومها في أعنف الاحداث

أجل ، ما كانت لتتوارى عن أية حادثة أو نازلة ، وما

أشياء الكائنات من إنسان او حيوان او جماد . . . سيأتي مفصلاً مستقصى لدى الاسم كافة ، في كتابنا « طفيليات وأساطير »

(١) سفر الخروج ١٥-٢٠ ومركز المرأة في الاسلام ص١٢ نقلاً عن يوسيفوس

كانت تقنع لدى الحوادث والنوازل بمشاركة قومها فحسب ، بل تغامر وتفكر ولا ترضى إلا أن تكون الاولى في المغامرة والتفكير ، وهـذه خيمة الاجتماع لاتزال جلساتها تحفل أمجادا بجليل افكارها وسامي آرائها .

وإن قارئاتنا يجدن في العصر الاسرائيلي الحكومي ، كثيراً من السياسيات المفكرات ، اللائي احرزن في حلبة السباق قصبها . ولا تزال تلك الاعصر تستضيء إعجاباً وتفتلي فخراً بأمجاد القاضية البارعة السيدة « دبورة » (١) التي ركزت بياناتها وآرائها عظمة القضاء وجليل مكانته ، وبخبرتها الحربية ومعارفها العسكرية ، أسمى التدريبات الفنية للجيوش .

وهذه الهند العزيزة ، تمجد مكانة المرأة الاجتماعيـة على يد المصلح الديني «بوذا» ، وكيف لا يكون تمجيداً أن لا يجد من يثق به ، ويسند اليه ادارة الجمعية الاصلاحية ، سوى عمته المؤمنة الصالحة السيدة « كوتامي » (٢)

ولو أن قارئاتنا تباركن بانعـام انظارهن في حياة حواريات (٣) سيدنا المسيح ، لشاهدناهن كواكب امجاد على

---

(١) سفر القضاة ٤ و ٥ ومركز المرأة في الاسلام ص ٩٧

(٢) مركز المرأة في الاسلام ص ١٣

(٣) حواريات ترجع الى اشتقاق حبشي سامي كما حققه العلامة الاب « مرمرجي » في كتابه « المعجمية العربية » ص ١٣ ، ويهدف من وراء ذلك الى جلال الاخوة الجنسية بين شعوب الشرق الادنى .

اوفع منارات المنازل الاجتماعية .

هذه «مريم المجدلية» المرأة الصالحة التقية ، التي باركها سيدنا المسيح وحفتها أنواره ، وشملتها رعايته ، ونالت من الشرف والسؤدد ما سيظل خالداً أبد الآباد .

ولعل قارئاتنا يخلن اننا نبالغ في مكانتها ، ونسهب في الاطراء ، ويشهد الله ما ذاك من دأبنا ، ولكن ايماننا بالحقيقة وتوجهنا الصادق الى تأييدها واعلانها ، هو ما يخيل لغير الدارسات المتعمقات ، اننا نسهب او نبالغ .

اني تكون المبالغة ، وها هو ذا التاريخ يعلن أن اليهود حين اضطهدوا المسيحيين في فاتحة الدعوة وضيقوا عليهم أوجه الحرّيه ، رافضين رأى حبرهم العظيم المتسامح «غمالائيل» (١) مترصدين لهم كل مرصد في السامرة واليهودية والجليل ، لم يخلصهم من ذلك الاضطهاد ، وينقذهم من الضغط الشديد ، ويعيد لتلك الكنائس حريتها ، إلا مريم المجدلية ، ذات المنزلة الكبيرة في ذلك المجتمع ، حين ذهبت إلى الامبراطور الروماني «طيباريوس» وعرضت عليه الامر ، وطلبت الانتصار للحق وإعلان حرية العقيدة ، فسارع في اجابة طلبها (٢) بكل اكبار واحترام .

ولا يخلن قارئاتنا ان «فيبي» اقل من مريم المجدلية مكانة ومنزلة وسمواً ، في ذلك المجتمع المقدس ، الطهور ، الذي

---

(١) أ ع ٥ - ٣٥

(٢) مركز المرأة في الاسلام ص ١٤

اسسه سيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام ، وتركه كصفحة القمر جليةً وضاءة .

أقل أقلّ ؟ وكيف تكون كذلك ؟ وهذا القديس العالم المحرر، والمتسامح والمفكر الذي يزن حالة الافراد والامم بميزان الحكمة ، فيعطي لكل مرض دواءه ، الذي يتم به الشفاء « بولس » .

اجل بولس نفسه ، يصرح في رسالته التي بعث بها الى رومية (١) بأن « فيبي » فوق انها قديسة وانها مشرفة على كنيسة « جماعة » ساعدت باعمالها البرة ، واصلاحاتها ومنزلتها السامية ومكانتها ، الكثيرين . بل يصرح انها ساعدته هو نفسه ، وكفى بهذا اعترافاً بجليل مكانتها ، وسمو منزلتها ، في ذلك المجتمع المنبثق في فجر المسيحية .

إذن فحواريو سيدنا المسيح كانوا يكبرون من منزلة المرأة ما يكبرون ، ويعطونها حقها من الاجلال والاحترام ، ويعترفون بتضحياتها وسموها واخلاصها ، وما زلنا حتى اليوم نجد السيدات البارات « مريم وبوسى وسالومة (٢) » اللاتي كن يرافقن سيدنا المسيح ، في ساعات الهول والخطر غير

---

(١) ١٦ - ١

(٢) هذه غير سالومة اخت هيرودس وزوجة الكسيس التي مر ذكرها في باب السلام راجع سيرة المسيح للدكتور جورج فورد ص ٦٧

متواريات ولا وجلات (١) .

ومن هنا يتضح لقارئاتنا أن جهادنا باكتشاف الواقع ، يبين منزلة المرأة الاجتماعية في الوحي الالهي هي هي ،منذ اقدم الاديان الى خاتمها الاسلام .وكان من ضيق المعرفة لدى بعض الكاتبين ، ما تلقفوه من ترهات الوثنية الرومانية ، التي استطارت حول كنيسة رومية ، واوريجانوس وهنري الثامن وسواهم :«من أن المرأة شيطان ،وانها لانفس لها،وأن حرمانها من المعلم واجب ، وانها لا يصح ان تلمس الكتاب المقدس كما يجب ان تضع على فمها كمامة . .

اجل ، تلقفوها واذاعوها كأنها من الوحي الالهي الذي جاء به المسيح عليه الصلاة والسلام ، ولاندري كيف اطمأنوا اليها ،واجازوا لأنفسهم ان يذيعوها في الشرق والغرب ،على اعتبار انها منه ، مع علمهم أن سيدنا المسيح نفسه لما شاهد «مرتا» تبكي اخاها «لعازر» . بحرقة تكاد تقضي عليها ، اشفق اشفاقا اوجعه ، فما وسعه الا أن يبتهل الى الله تعالى ، لاحيائه لها (٢) وهذا شأنه لدى اتهام المجدلية حتى صرخ في اوجه القاذفين الآثمين وزجرهم ، واعلن جرائمهم الخفية وراء مظاهرهم الكاذبة ، بتسطيرها حيالهم (٣)

---

(١) ١٥ — ٤٠

(٢) يو ١١ — ١

(٣) يو٨—٢ راجع رأينا في امر المجدلية بكتابنا « دين ابراهيم » ص ٤٣

على أن جميع الاباطيل المذاعة بالامس ،حـــول الاديان الآلهية ، التي انزلها الله لتضميد جراح الانسانية ولم شعثها ،إنما أذيعت عناداً وجهلا وتحاملا .

هذا السيد رشيد رضا والمنفلوطي ، ومحمد جميل بيهم وعبد القادر المغربي وعبد الفتاح الامام . . .اغضبتهم التهمة الباطلة التي نسبها الى المسلمين ، مسيو كلوت في قوله : « إن المسلمين اختلفوا ، هل للمرأة روح ام لا » (١) ، فكالوا له بالمثل

وإنا نجد كلا الفريقين المتقاذفين اخطأ مرمى الواقع والعلم لأنهم اثاروا أساطير الوثنيات الموضوعة ، كأنها هي الوحي الالهي ، وإلا فما شأن « اوريجانوس » الذي اعلن الخرافة الوثنية الرومانية في قوله «إن المراة شيطان» .إنه لايمثل الا نفسه ، وهذا شأن «هنري الثامن» فقد كان ذا نزوة جبارة محطمة ، يقول ما يقوله عن المرأة في غليان نزوته وعرام ظمئها ، ويقتل ما يقتل منهن ، إرواء لهيب ذلك الظمأ الذي لا يروى!! فأي صلة لهما بالوحي اوالمسيح ؟،ومسيو كلوت ،لم يكن باقل منهما تسرعاً واندفاعاً ، حين نسب الى المسلمين مالم يدر به احد ، فعلى م نقيم الدنيا ونقعدها وننقاذف بالشرور والاثام وتمزيق كلمة الاخوة الانسانية ، وهدم معالم الوحي وطمس اضواء العلم . من جراء أوهام وخيالات واساطير وطفيليات لاصلة لها بواقع الوحي . والحق ان كنيسة رومية ، لم تختلف بأن المرأة تخلو من

---

(١) كتاب لمحة عامة الى مصر ص ٦٢٢

النفس أو لاتخلو منها ، وانما اختلفت في مدلول لفظة «هوم» (١) اللاتينيـــة ، التي هي بمعنى النفس او الطيف ، هل تصدق على المرأة كما تصدق على الرجل ؟ على أنها لو اختلفت فهل يحط هذا من جلال دين سيدنا المسيح ؟

وهكذا نجد قارئاتنا ، أن كل البلايا التي أنزلها بالانسانية ، الذين ارادوا أن ينهضوا بالمعرفة إلى الواقع والعلم في عصورهم إنما انزلوها لأنهم اعتمدوا على مثل تلك الخرافات الجوفاء ، واغتروا بها ، وإنهن يستطعن أن يقلن مثل ذلك في الاساطير والطفيليات (٢) التي وضعت حول الكتب المقدسة ، وعلى السنة الانبياء ، وفيها هدم لمنزلة المرأة الاجتماعية ، واستهتار بعفافها ، وتهجم عليها ، وعلى حريتها الشخصية .

وصفوة القول ، يجب على قارئاتنا المثقفات أن يعلمن أن وحي السماء هو أبداً كالسماء ، صفاء واشراقاً وسمواً وطهرا (٣)

وهذه الجاهلية التي لم تكن في ظن قارئة واحدة ، أنها تشتمل على منزلة اجتماعية للمرأة ، نجدها حاوية أسمى المنازل التي

---

(١) Homo مجلة المشرق مجلد ٣ ص ٩٥٦

(٢) سيجدن ذلك موسعاً محرراً في كتابنا « طفيليات واساطير »

(٣) لذلك ضربنا صفحا عن ذكر ما تكدس بين يدينـا من تلك الخرافات كبعض كتابي « مرآة النساء » و « دولة النساء » عملا بما جاء في الانجيل «تمسكوا بالحسن » وما جاء في القرآن «وبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه »

استمتعت بها في سواها .

أجل ، ما كان يقطع العربي أمراً في بعض قبائله ، الا اذا أخذ رأي بناته في الشؤون الخاصة والعامة ، (١) وكم من مصائب وأهاويل تنزل على القبيلة التي تجافي نصح المرأة ، وتأبى الاصغاء والطواعية لها .

ها أنتن ترين قوم « حذام » الذين رفضوا أن يصيخوا لنصحها ، وكيف كان عاقبة رفضهم الثباب ، حتى اصبحوا مثلاً خالداً على الالسنة في رفض النصح وسوء المنقلب .

إذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام

عصور ما بعد الهجرة

والآن يحسن بقارئاتنا أن ينتقلن الى عصور مابعد الهجرة وقد طوفن ما طوفن في اعماق الاجيال والحقب ، ها هن اولاء يشاهدن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، في عام الحديبية يأمر اصحابه بالتحلل من الاحرام بحلق رؤوسهم ، حين صدته قريش عن مباشرة نسك الحج ، بيد أن الامر يشق على اصحابه ، ويشتد الحال ، وتكفهر الدنيا في اوجههم ، ولم يجدوا من أنفسهم ، حماسة متقدة تخضعهم لتلبية أوامر رسول الله لينقضوا ما اعتزموا عليه من اداء نسك منوا أنفسهم طويلا بالاستمتاع به ، وهم الظامئون إلى نهلة حالمة من ماء زمزم ، ونفحة قدسية من ظلال البيت الحرام ، فيدخل رسول الله على ام سلمة

(١) محاضرات الخضري ١ – ١٩ والاغاني ٩ – ١٤٩

مستطلعاً رأيها مستشيراً ، وفي المسلمين أمثال ابي بكر وعمر وعلي والمقداد ،وكبار الصحابة ، وما يدخل إلا أمامهم محمداً ، وما يختصها بالاشارة إلا قصداً ، يفعل ذلك لاظهار سمو منزلة المرأة الاجتماعية ، واعلان أن رأيها يعتصم به لدى الشدائد ، وأنها شعلة من الحكمة يستضاء بها فيما يحزب الجماهير من ظلمة الامر ...

رأت أم سلمة الاديبة الصابرة ، أن الامر العملي اوثق في النفس ، واحفز للاسوة ، وأنفذ في التأثير ، وفهمت أن الصحاب ، مابهم من خلاف على رسول الله ، ولكنهم طعنوا في أكبر أمانيهم القدسية ، فعز عليهم أن يتحللوا من إحرامهم قبل إداء النسك ، وفي مقدورهم ذلك فقالت : « يا رسول الله إبدأ بنفسك » (١)

أخذ رسول الله برأيها ، وما كان ليعزب عنه مثل هذا الرأي ، ولكنه أرسل معلماً ، فهو يضع الخطط العملية لمعاملة المرأة حين يختصها باستطلاع رأيها ، وبين يديه جمهرة مفكري اصحابه ، كأنما يقول لهم بعمله : « إن للمرأة فكراً سامياً ، وإن للمرأة رأياً خطيراً ، وإن للمرأة عقلية حرة ، لا ينبغي أن تهمل فيما يحزبكم من أمر ، وكأنما يضع لهم المثل الاعلى لمنزلة المرأة الاجتماعية بعمله هذا .

وهل سمعتن أن رئيساً كبيراً ، أو زعيماً أو حاكماً يجرح في جاهه من قبل اصغر امرأة في الأمة ، ويرضي ويبالغ في الرضا محتفياً محترماً حريتها الشخصية واتجاهها النفسي .

---

(١) اعلام النساء ٢ ـ ١٦٠١

تلك هي « بريرة » ولعل قارئاتنا يخلن بريرة هذه ابنة زعيم كبير أو ملك خطير ، او ذات شوكة وسلطان أو ثراء جم ، لا لا ، هي امرأة فقيرة كانت امة — في عرف الجاهلية — وزوجة لمولى ، ولكنها في نظر لانسان الكامل ، لانقل منزلتها في كرامتها عن منزلة اية ملكة أو ثرية أو سليلة أسرة عريقة ، لا لشيء إلا لأن لها من الحقوق ، والواجبات والحريات الشخصية ما لكل امرأة .

ها هي ذي تقبل على رسول الله وتعلنه بكل صراحة أنها لا تريد العودة إلى زوجها مغيث ، ويأتي خلفها مغيث المسكين ، باكياً منتحباً ضارعاً إلى رسول الله أن يمسك عليه زوجه فهي حبيبة إلى نفسه ، وعزيز عليه فراقها ويتأثر النبي ﷺ بتضراعاته ويرى اثر الحب الصادق البريء منطبعاً على وجهه ، فيشق عليه ذلك ويشفع بنفسه إلى بريرة طالبا اليها أن تراجعه فتجيبه قائلة : « أهذا أمر من الله أم شفاعة منك ؟ » فيقول ﷺ : « انما أنا شافع » فتأبى !!

وحين شاهد « مغيث » هذا الرفض الصارم اخذ يبكي بكاء الاطفال ، ويتبعها في طرقات المدينة ضارعاً متوسلاً ، وهي لا تزداد إلا إصراراً وعناداً . ولولا أن رسول الله يأخذه الاشفاق عليه ، فيضرع إلى الله أن يزيل من قلبه حبها لقضي عليه . (١)

---

(١) راجع باب الشفاعة في البخاري ٧-٤٨ الطبعة الحميدية

ها أنتن رأيتن رسول الله، كيف حافظ على منزلة المرأة الاجتماعية، وكيف كرم حريتها الشخصية، وكيف أبى أن يمس عواطفها رفقاً بها، ويقسرها على ما لا تحب، قسراً يلقي في روعها أنها صغيرة المنزلة، ليس لها عزة تمنعها أو ثروة تحول دون امتهانها.

وهذه «عائشة ابنة طلحة التيمي» المثقفة الاديبة، والعالمة الفلكية، كم من جلال وإكبار، كانت تستمتع بها منزلتها الاجتماعية، تنحسر دون سناها الأبصار، وتظل الاصابع مومئة اليها.

ولكي تدرك قارئاتنا شأو هذه الكلمات التي نحاول أن نفصح بها عن مكانة عائشة ابنة طلحة، والتي تبدو لأول وهلة طافحة بالمبالغات، نزيح الستار عن مواكب دمشق، واحتفاء الملك والاهلين بها لدى مقدمها من الحجاز، وكيف تقام الحفاوات والاحتفالات، وكيف يجتمع اليها ساسة الدولة وكبار قوادها وعلمائها، لكي ينالهم شرف الاجتماع بها، والافادة من مواهبها السياسية العالمية العالية.

لاريب أن قارئاتنا فهمن أية منزلة عظيمة، كانت لعائشة

— على أن البخاري ذكرها في ما يقرب من خمسين موضعاً وسيأتي بحث الطلاق في الشرائع عامة، السماوية والوضعية والقوانين، وتاريخه وادواره واقوال المشرعين في كتابينا «المرأة والتشريع»

ابنة طلحة حتى أن صاحب كتاب نهضة المرأة المصرية (١) ، ذكر أن الاستعراضات العسكرية ومران الرماة وتمييز المتفوقين منهم بالتشجيع وإهدائهم ثمين التحف ، ما كان يتم على أوفى نصيب ، من الدقة والملاحظة والأمانة وفهم القيم ، إلا بحضور ابنة طلحة ، إذ كانت — كما قال — خير حكم .

وليكن ابنتها القارئات السيدة « نفيسة » التي ما كان منزلها يخلو من الزائرين والزائرات ليلاً ونهاراً ، منزل لو أرسلت على أركانه الاردان والسجف ، لكان كالبيت جلالاً وطهراً ..

أعمال اجتماعية خالدة ، ومساعٍ في سبيل الحق والخير ، وايادٍ أثر أياد في اصلاح حال الطبقة الفقيرة ، وجلال من العلم لا يدرك مدى شأوه إلا عباقرة العلماء ، ومجتهدوا الائمة

هذا تلميذها « محمد بن ادريس الشافعي » الامام المجتهد ، كان كل رجائه من الدنيا أن تصلي عليه السيدة نفيسة قبل أن يثوي في جدثه .

اما منزلتها الاجتماعية ، ومكانتها الدينية ، فحسب قارئاتنا أن يعلمن أنها يوم توفيت ، حاول زوجها « إسحق ابن الامام جعفر الصادق » وكبار الهاشميين ، أن ينقلوا جثمانها إلى المدينة المنورة ، فهاج هياج الشعب المصري ، وأبى ذلك .

أجل أبى ، باصرار وعزمات ، لتظل في مصر ذكرى للعلم والتضحية والنبل والانسانية .

---

(١) هذا جانب من مكانتها وستأتي في الكتب الآتية جوانب أسطع والمع ، راجع دولة النساء ٢٦-٢٨

وإن قارئاتنا يجدن لهذه السيدة الكبيرة ، في مصر إلى اليوم من ذكريات وأمجاد خالدات ، ما يتحدث عنها الرواد رغم تطاول الحقب(١) . وما شهدت مصر منذ عهد « نيتوكريس »(٢) إمرأة لها من قداسة المنزلة الاجتماعية وسمو احتراماتها ، وجلائل آياتها ، ما شهدته لنفيسة بعد ابنة عمها ، السيدة زينب الصغرى وما كانت « قطر الندى » في العصر العباسي ، بأقل مكانة ومنزلة من عائشة ابنة طلحة في العصر الاموي ويلذ لنا أن نزيح عن أوجه قارئاتنا ظلمات الحقب ليشاهدن قطر الندى التي كانت المرجع الرسمي الاعلى في الدولة ، حل القضايا المعقدة ، وفصلها على خير الأوجه الشرعية وأصحها ، وكم فيها من توجيه وتصحيح ودقة وأمانة ، وبراعة وفهم وذكاء ، حتى أن المجاهد الكبير ، والعلامة الغبقري الامير على الهندي صاحب « كتاب مركز المرأة في الاسلام »(٣) ذكر أن مكانتها في العصر العباسي ، مكانة رآسة الاستئناف في العصر الحديث

---

(١) للسيدة نفيسة مكانة علمية خطيرة سيأتي ذكرها في كتاب « المرأة والعلم » راجع ترجمتها مفصلة في شذرات الذهب ٢=٢٠

(٢) سيأتي ذكرها

(٣) ص ٢٥

المرأة والمصلحة الاجتماعية

كبير في الخطأ أن تجد قارئاتنا أمة تؤثر التضحيات ، في سبيل المصلحة الاجتماعية العامة ، والمغامرات من اجلها ، من غير أن تنمي نوبانها منذ الطفولة ، في أعماق مجموعة كل فرد النفسية . أي من غير أن تنشأ أطفالها على العقلية الاجتماعية ، وأنى نجدنها عاملة حية وارفة الظلال ، جمة الثمرات ، إذا لم تنشئهم ، على أحدث طرق تربية العقلية الاجتماعية باهتمام وسهر دائبين .

وفاقد العقلية الاجتماعية ، محال أن يؤثر المصلحة الاجتماعية العامة ، على مصلحته الذاتية الخاصة ، وما تشاهده قارئاتنا أحياناً ، من اندفاع بعض الافراد الذين يفقدون العقلية الاجتماعية ، إلى إيثار المصلحة الاجتماعية العامة ، والتهويل حولها ، فهو في الظاهر فحسب ، إذ يجدن لذلك الاندفاع بواعثه الذاتية « الخفية » ، التي هي المحرك الاول لو درسن المسألة دراسة نفسية عميقة . والبواعث الآثمة الخفية لاتحصى كثرة ، يجدنها في طلب الرياسة حينا ، وفي دجى التجسس أحيانا ، وتارة في طلب الاثراء ، وطورا في إذاعة نحلة أو إفساد عقيدة ، وبذلك يعلل بولس ذهابه إلى القدس مع برنابا لكشف خفايا الأخوة الكذبة « ولكن بسبب الاخوة

الكذبة الذين دخلوا اختلاساً ليتجسسوا حربتنا » (١) وفي مثل هؤلاء نزلت آيات كثيرة « إذا جاءك المنافقون ، قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة . . . » (٢) « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن » (٣)

« وقالت طائفة من أهل الكتاب ، آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنو وجه النهار ، واكفروا آخره لعلهم يرجعون » (٤)

ومن هنا قارئاتنا يدركن ، أن المظاهر الخداعة والخطب الرنانة ، فلما تدل على الحقيقة النفسية ، وكمين البواعث الخفية على أن الاهتداء اليها ، يقتضى جهداً في التتبع والاستقصاء ، وأزمانا طويلة تنفق هنا وهناك .

هؤلاء « الدونمة » (٥) حين يئسوا من السلطان العثماني « عبد الحميد » أن يسمح لهم بسكني فلسطين ، تظاهروا

---

(١) غل ٢=٤

(٢) المنافقون ١

(٣) البقره ١٤

(٤) آل عمران ٧٢

(٥) أي المهتدين للاسلام من يهود سلانيك رجالاً ونساء . راجع المقتطف مجلد ٣٥ ص ٩٥٧

بالاسلام وتحموا له حماستهم المشهورة ! ! واخذوا يقيمون الدنيا ويقعدونها ، دعاية له وذودا عنه ، وهم في أطواء ذلك يمكرون بالسلطان ، ويحفرون حوله الاخاديد ، ويؤلفون المذاهب والعصابات والاحزاب ، حتى إذا هوى السلطان ، وظهر الاتحاديون ، ولم يجد الدونمة إصغاء لامانيهم ، ولا تلبية لاهدافهم البعيدة المرصودة ، أعلنوا حقيقتهم وخلعوا ثوب الاسلام ، ولجئوا إلى اوربة وربطوا أمرهم هناك .

والخلاصة أن الانسان في صميم فطرته الاولى ، مشتمل على نويات العقلية الاجتماعية ، ونويات العقلية الذاتية ، ولن يكون توجيهه إلى هذه أو تلك ، الا بعوامل التربية .

نعم لن يكون هذا التوجيه منذ الطفولة ، الا في المدرسة الاولى ، وعلى يد الاستاذ الاول « الام » أي على يد المرأة

إذن فالمصلحة الاجتماعية وليدة العقلية الاجتماعية ، فمن لا يملك هذه العقلية ، من أنثى أو ذكر فيهات هيهات أن توقظه العبر ، وأن تذكي في نفسه حوادث الدهر ، حماسة الاهتمام بالجماعة ، وثورة التضحية ، ونور الاخلاص ، أي هيهات أن يعمل للمصلحة الاجتماعية ، ولو كان في ذلك هلاكه ، وحوادث الامم البائدة أكبر شاهد ! !

وكم يعنينا في هذا الفصل أن نذكر اهتمام المرأة بالمصلحة الاجتماعية العملية على مدى التاريخ ، سواء كان في المحيط الانساني العام ، أو في المحيط القومي ، أو المحيط الديني ، والمصلحة الاجتماعية ، وإن كانت وليدة العقلية الاجتماعية

ونتيجة لتربيتها ، وطرق تهذيبها ، بيئة ومدرسة ومنزلاً ، فهي عاطفة بلا ريب ، وهي بحق اسمى العواطف الانسانية وأقدسها على الاطلاق واحقها بالخلود والاكبار ، لان الفرد لايكون إنسانا اجتماعياً مهذباً كاملا ، وعضوا حيـاً اجتماعياً نافعاً ، إلا بها ولأن الجماعة لاتعلوا ولا تمجد ولا تخلد ولا تتحضر ، وبالاختصار لاتكون الانسانية ذات الجسـاد تاريخية وثقافة ومدنية إلا بها .

وإذا كان علماء الاجتماع والقانون ، يخشون على الكيان الاجتماعي . من أوباء الانانية الفردية المجرمة ، ويوجبون إعدام الفرد الملوث بها ، خشية خطر العدوى ، فان واجب المرأة كمربية وأم ، قبل المدرسة ، أن تغرس نويات العقلية الاجتماعية بكل سهر واهتمام وجهد ، وإلا كانت المسئولة الاولى عن إعدامه .

ولعل جميـع قارئاتنا يذكرن الحـادثة المشهورة ، حين قدم أحد اللصوص الفتاك للاعدام ، وطلب اليـه أن يتمنى كالعادة ، فلم يطلب إلا وداع أمه ، وأن يقبل لسانها ، لانه تظاهر بالبكاء والحنـان لها ، وما كاد يتناوله بين فكيه ، حتى انتزعه من أقصى لهاتها ، وتركها جثة هـامدة ، وقدمها يتدفق أمامه ، وهو ينشد لدى موته .

لو لم يكن هذا اللسان مشجعاً
لي في الجرائم ما فقدت حيـاتي .

ولولا عاطفة المصلحة الاجتماعية وتفاوتها في الافراد قوة

وضعفا ووجودا وعدما ، لما تفاوتت الامم أمجادا ، واختلفت قوة وحياة وحضارة ، إذ محال أن تساوي الامة الجاهلة التي لاتفهم شيئاً عن قيم المصلحة العامة ، الامة المثقفة التي تضحي بكل شيء في سبيل ذلك ، إذ الاثرة الذاتية الاثيمة هي الافعى التي تسمم بواعث المصلحة الاجتماعية ، وتأتي عليها في أبعد جذورها ، كما أن الايثار الكريم هو القوة التي بها تحيا وعليها تقوم ، وإيثار المرأة في سبيل المصلحة الاجتماعية العامة ، لم يخل منه جيل من الاجيال منذ فجر التاريخ

ونحن في هذا البحث ، لانحاول أن نزجي إلى قارئاتنا ، فلسفة المصلحة الاجتماعية العامة ، ونستقصي اقوال المصلحين والعلماء ورجال القانون حولها ، وإنما كل عنايتنا أن نتحدث عن أثر حياة المرأة في المصلحة الاجتماعية العامة ، سواء بتربيتها وتأثيرها أو بعملها منذ أقدم الازمان إلى اليوم ، على أن الافاضة في الناحية التربوية خاصة ، سنرجئها الى موطنها في الكتاب الرابع .

نعم دائرة المصلحة الاجتماعية ، جمة السهوب مترامية الآفاق البعيدة ، لأنها تتناول كل ما يقدمه الانسان لاخيه الانسان ، من خير وهدى وثقافة ومسادة ، بحماسة الوجدان ، وطهر العاطفة ، ويقظة الضمير ، وروح الحق ، ونور الايمان ، ولا يسعنا أن نستوعب في بحثنا هذا كل ما توفر لدينا ، من دراسات تاريخية حول المرأة .

وإنا سنقتصر على الخلاصة ، من هذا اللون لتكون عونا لقارئاتنا على البحث والتنقيب والدراسة ، نقتصرها مبسوطة حسب التسلسل التاريخي .

عصور ما قبل الهجرة

هذه مدينة « بيت فلوى » الكبرى يحاصرها « ألفانا » القائد الآشوري الحربي ، الذي أفضى اليها بجيشه الجرار البالغ مائة وعشرين الفا ، بعد أن أخضع في طريقه كل الشعوب التي مر بها ، يحاصرها حصارا شديدا ، ويضرب عليها سورا من الحديد والنار ، ويقطع عنها المياه ، حتى أوشك أهلها أن يهلكوا ، وفي إحدى الليالي فكرت المرأة اللامعة الذكية ، « يوديت » تفكيرا عمليا سريعاً حاسماً ، فلم تجد طريقا حيال نطاق الجنود الجهنمي ، الذي يحيط بعشيرتها ، إلا أن تكون المغامرة الفدائية ، الجذرة الماكرة الداهية ، إما انتصاراً وحياة ، وإما موتاً بشرف وجهاد .

هاهن قارئاتنا يشاهدنها ، وقد خلعت عنها مسوح العبادة وارتدت أفتن ثيابها ، وألقت بنفسها في بحر من ظلمات الليل ، يبتلعها وهد ، وينتشلها نجد ، حتى إشرفت على الحرس فبادروا اليها ، وقد زعمت انها هاربة ، لان قومها هلكوا أو كادوا ، فساقوها إلى فسطاط القائد .

ها هن يشاهدنها بين يدي « ألفانا » تغرب به وتشرق من هنا وهنا ، حتى اعتقد أنها صادقة ، وآمن لها ، وما

كاد يأخذ عينه الغمض ، حتى وثبت اليه وثبة اللباءة الكاسرة واجتزت رأسه بخنجرها سريعاً سريعاً ، ثم تناولت الرأس وتسلمت به في غلس ، وما كاد قومها يرون الرأس ، حتى اشتدت عزائمهم ، وثارت في انفسهم ثائرة الحماسة والشجاعة والاقدام ، ورأوا من العار أن يكونوا دون « يهوديت » بطولة وإقداما وثباتا وتضحية ، وما كاد الفجر يرسل اضواءه الخافتة بين حنايك الظلمات ، حتى هجموا على الجيش الأشوري هجمة واحدة ، مما أذهلهم بغتة وطاز بشجاعتهم ، وما كادوا يرون القائد ذبيحاً ، حتى وهنت عزائمهم واسترخت إرادتهم ، فقتل منهم من قتل ، وفر من فر ، وهكذا ما كاد ينتصف النهار ، حتى رأينا يهوديت ، وقد دفعت لها كنوز القائد وذخائره ، فلم تكترث بها ، بل لبست مسوحها ، وثابت إلى معبدها ، وقد أرضت ربها وشعبها والتاريخ ، فكانت في التاريخ العام علم فخار ، وذكراها لاتزال في الكتب المقدسة تتلى إلى اليوم بخشوع واحترام . (١)

ولعل قارئتنا لايجهلن أن اليمن ، تأخرت سياسيا واقتصاديا وعمرانيا ، في القرن الثالث قبل الميلاد ، وإنهن ليشاهدن أثر الخراب والتداعي ظاهراً هنا وهناك ، في مصانع الاسلحة والنسيج ، في المكاتب العامة ، في القصور والثكنات في الاسوار والمعابد ، في مجاري المياه والسدود ، حتى أن

(١) سفر يهوديت

سد مأرب العظيم ، الذي انفقت عليه دول اليمن القديمة القناطير المقنطرة ، والذي عليه مدار الحياة الزراعية والثروة والغنى ورفاهية العيش ، بدأ يتصدع ، ولا ترميم ولا اصلاح ، وهكذا حين تنحط العقلية الاجتماعية ، وتفقد الافراد حيوية المصلحة العامة ، تموت العزائم ، وتخمد رغبات الاصلاح وتزداد السخافات ، وتكثر الترهات والاباطيل ، ويضيع الوقت ، الذي هو كنز الاحياء والثراء والقوة ، شيئاً تافهاً لاوزن له ، ينفق في القال والقيل والعبث واللهو ! ! فكم من سخافة مدونة يخجل منها التاريخ نجدها في تلك الحقب السوداء المشئومة .

هؤلاء هم يرون شقوق سد مأرب وكثرة الحشرات التي تأوي اليه ، فيكون جل اهتمامهم واصلاحهم ، أن يأتوا بقطيع من الحمير ، زاعمين أنها تقضي على الحشرات والجرذان ؟ وحين وقفت « ظريفة » اليمانية ، المرأة الاجتماعية المفكرة ، تنذرهم البلاء الذي سيحيق بهم ، ويمزقهم في البلاد أيدي سبا ، وبجعلهم عبرة للمعتبرين ، سخروا منها واتهموها بالتطير والكهانة ، وحين لم تجد مصيخاً أو متعظاً أو واعياً حيياً ، أعرضت عنهم وأزمعت الرحيل فاقتفى أثرها ذوو الفكر الاحياء ، وأهل البصيرة بعواقب الامور .

أجل أزمعت الرحيل وهي تقول كلمتها المشهورة الخالدة « ليس لكم يا أهل مأرب من بقاء إلا بضعة أعوام ! ! »

وهكذا كان .

ولعل قارئاتنا تخلننا حين نصف عظمة اليمن الزراعية

الخالدة ، البلاد التي كانت توصف بالسعادة والمدنية والعمران أننا نبالغ ونسرف في المبالغة ، ولكن إذا علمن أن سدود اليمن وصلت مياهها حتى تدفقت في البحر الاحمر علماً ماديا ثابتا مشاهدا حتى اليوم ، لم تستطع كر الدهور والاجيال ان تقضي على كل معالمه ، تبين اليهن فعاتبتنا على إيجازنا في وصف الحقيقة والاقتصاد من الشرح (١)

وهاهن قارئاتنا يرين الشعب الفارسي النبيل ، شعب المجد والمدنية العريق ، يثور نساء ورجالاً على الملك الظالم المستبد والطاغية الجبار « شهريار » (٢) ويهدم عليه قصره ، ويقتله شر قتلة ، ولكنه يقف وقفة الاجلال والاكبار ، وقفة الشعب المؤمن بقيم المصلحة الاجتماعية ، وجليل منافعها وكبير آثارها يقف أمام المصلحة النبيلة ، ذات التضحيات الكريمة ، في سبيل المصلحة الاجتماعية ، « توران » ابنة كسرى ، ويجلسها على العرش مستسلماً راضيا فرحاً مغتبطاً ، وهكذا يكون التقدير والاعجاب والتأييد للعاملات ، المضحيات في سبيل المصلحة الاجتماعية العامة . (٣)

---

(١) قد اكتشف الانجليز بقايا تلك السدود ومجاريها التي تروي عدن وتصب في البحر الاحمر مياهها الزائدة عام ١٨٥٦ ، وقد اصلحوا بعضها مما يتسع لثمانين مليون جالون ، راجع ملوك العرب للريحاني ١ — ٣٤٤ وقصص العرب ١ — ٧٠

(٢) كان ذلك عام ٩٥٥ ، راجع تاريخ الخميس ١ — ٦

(٣) قد عهدنا لقارئاتنا في السفر السالف ص ٣٠ أن الاسم لا تحترم —

لا ريب أن قارئاتنا يزدهين كل الازدهاء، بعظمة المرأة وكبير مكانتها على أعراف التاريخ، بل هن يجدن أن المرأة لاتفوتها نهضة من النهضات، أو حركة من الحركات الاصلاحية الاجتماعية، إلا وتبارکها بجهودها وحماستها وتضحياتها.

ها هن أولاء يشاهدن السيدة «خديجة» ابنة خويلد، تضع اللبنة الاولى في مؤسسة الثقافة الانسانية العليا — الاسلام — تضعها بعزمات جبارة، مؤمنة بذلك النور المتدفق من السماء، الذي انفجر في غار حراء، وقد رأت من مصلحة الانسانية العامة أن يكون الاصلاح الانساني العام وأن يكون التفاهم بين الامم، وأن يحل النظام والحب والصدق محل الخصومات والحروب والفتن والاحقاد، فطمأنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بأن الذي أتاه هو وحي السماء، هو الحق، مستشهدة بأن من كان يحمل قلبا طهورا، ونفساً اجتماعية، وإخلاصاً للانسانية وجهاداً وتضحية لها محال أن يكون مستردا لاساطير الجن، وفتن الابالسة (١).

وها هن أولاء يشاهدن «أسماء» ذات النطاقين، تضع

— إلا العاملات والعاملين، وليس للخائن إلا الاعدام ولو كان ملكاً فكما رأينا الشعب الفارسي يعدم «شهريار» ويقيم مكانه «توران» رأينا الشعب الروسي يعدم «قسطنطين» ويقيم مكانه أمه «زوا»

١) كتاب «أسرار النساء» ص ١٦

الليلة الثانية في ليلة الهجرة ، تضمها وقد حفت بها الاخطار ، وأحدقت بها الخطوب ، والمت بها المسؤليات ، تضمها غير حافلة بقريش ، ولا بسخطها وعرامها ، ولا بأحقادها وخصوماتها ، ولا بجمهرتها وأسلحتها ، إنها تتعهد أن توصل الزاد الى غار ثور ، لرسول الله ورفيقه ، في سواد الليل وحالكة الدجى ، توصله جريئة مخاطرة ، توصله بنفس مطمئنة مؤمنة ، إنها تقوم بما تقوم به في سبيل المصلحة الاجتماعية العامة وفي سبيل النهضة ، وفي سبيل الخير والحق . (١)

ولا ريب أن جمهرة قارئاتنا المثقفات ، يعلمن أن سيدنا الحسن بن علي كرم الله وجهه ، تنازل عن حقه في الخلافة بعد البيعة ، مؤثراً مصلحة الامة الاجتماعية ، على مصلحته الذاتية ـ ان كان في خدمة الامة من مصلحة سوى المسئوليات والجهود والتكاليف ـ غاضاً بصره متسامحاً عن كل ما يثير التنازع ، حتى أنه صرح لمعاوية بذلك « تركت قتالك لصلاح الامة وألفتها » كما أكد ذلك للمعترضين عليه من قواد ابيه وجنوده الذين أبو إلا مواصلة الحرب إلى النهاية قائلا « أردت صلاح الامة وكف بعضهم عن بعض » (٢) ولكن قليلات جدا اللاتي يعلمن أن أم المؤمنين السيدة « أم سلمة » البرة الجريئة ، ثارت ثائرتها لأنها تخوفت من

---

(١) للتوسع في ترجمة اسماء راجع « حياة الزوجين » ٢٥

(٢) ابن الاثير ٣-٢٠٥ وابن أبي الحديد ٤-٦

عاقبة استطالة رجال معاوية على أمير المؤمنين سيدنا علي عليه السلام ، ورأت في ذلك تحديا يوغر الصدور وينفث الاحقاد ، ويشعل الضغائن وبالتالي يصدع صفوف الامة ويهدمها هدماً ، فأرسلت إلى معاوية رسالتها الجريئة التي نوه بسمو قيمتها الاجتماعية المؤرخون . (١)

وهذه أم المؤمنين السيدة « عائشة » يبعث سيدنا عمر رضي الله عنه ، أموالا طائلة فتؤثر بها ابناء الطبقة الفقيرة من الامة وتنفحهم بها ، حتى أن خادمتها التي كانت تطوف بالبدر على البيوت ، قالت لها مبهوتة ، حين رأت يدها صفراً « أراك ياسيدتي لم تبق شيئاً وانت صائمة » فأجابتها « لو ذكرتني لفعلت » (٢) فهل من سمو يكون لعاطفة المصلحة الاجتماعية فوق هذا السمو ؟ .

ألا إنها نسيت أنها صائمة ، وأنها بحاجة إلى شيء من الطعام تبتاعه ، وأن كل ما تملكه هو هذا المال ، الذي نفحته بارة محتسبة هنا وهناك ، وإنا لانجد غرابة أن تنسى السيدة عائشة صيامها ، بل ان تنسى نفسها في موقف العاطفة المشبوبة وحماستها ، فالعواطف أبداً لها خصائصها وميزانها ولها مسلكها الذي هو فوق الحساب والتقدير .

ولا ريب أن صرخات المرأة ، في سبيل المصلحة الاجتماعية

---

(١) اعلام النساء ٢-١٦٠١

(٢) شهيرات النساء ٥١

الانسانية العامة ، لاتزال تدوي في أقصى الممالك وأدناها ، منذ اقدم الاجيال إلى اليوم ، وإن قارئاتنا المدمنات على المطالعة والدرس لاغرو أنه قد أثار إعجابهن وحماستهن ذلك الصوت المجلجل الداوي صوت « سودة » الهمدانية ابنة عمارة وهو على أشد مايكون وضوحاً وقوة ونبلا وصدقاً ، في الحجاز والعراق والشام ، ها هن أولاء يشاهدنها تدخل العراق في ركبها ، وتأخذ سمتها إلى عاصمة الدولة « الكوفة » . . .

ولا غرو أن يشاهدن أمير المؤمنين « علياً » لايكاد يراها داخلة عليه ، وهو يصلي ، حتى يتم صلاته وينفتل إليها ، اكباراً لشأنها واحتفاء بها ، لانه يعرف سهرها على رعاية المصالح العامة ، وكبير غيرتها وصدق انتقادها وحصافة آرائها قائلا :

ـ ما بالك ياسودة ، أوراءك شيء ؟ ؟

ـ اجل ، هذا أمير الصدقات ، يجور ويطغى ويستبد

ـ اللهم إني ما أمرتهم إلا بما شرعت لهم في وحيك

ـ النصرة النصرة يا أمير المؤمنين ، فان الحق إن أهمل ضاع وضيع . . .

وما هي إلا أيام قلائل ، حتى أصدر أمير المؤمنين ظهيراً بعزله ، بعد أن تبين له سوء إدارته واضطراب أمره .

وها هي ذي « سودة » نفسها ، تدخل دمشق ثائره حانقة محتجة على معاوية ، في تركه الحبل على غاربه لابن « أرطاة » الذي يجور ويطغى باسم الدولة قائلة : « يا معاوية إن الله

سائلك عما افترضي عليك من شريعة ، فوالله ما لجأنا إليك مسالمين ، إلا لأنا آثرنا الذي هو خير « لصالح الجماعة » وإلا فلدينا المنعة والشوكة والعزة ، فاما عـزلته ، وإلا فعرفناك » ! ! (١) فيتهلل وجه معاوية ، ويأخذ في ابتساماته الخلابة ، ملقيا حبائله لاستعراضها بإثارة رغباتها الخاصة ، ولكنها تتجهم في وجهه وتكفهر ، وتنكر عليه أن تكون لها رغبات خاصة ، تأتي من أجلها وتحتج وتدفعها إلى الثورة والنضال ، وكرهت منه ذلك كراهة شديدة ، وأدركت أنه يمكر بها ، ويحاول أن يصرفها عما جاءت لأجله ، فأعلنت في عاصفة ملتهبة من الغضب والمغامرة ، أنها ما وفدت عليه ولها أية مصلحة خاصة ، وأن لديها ثروة كافية ؟ مغزلها وكسرة خبز وجرعة ماء ! !

أجل ، أعلنتها في عاصفة ملتهبة من الغضب ، أن الامة التي تفقد غيرتها وثورتها وتضحياتها في سبيل المصالح العامة تموت ، على أنها في النهاية انذرته أن وراءها شعبا حيا ائتمنها على رفع احتجاجاته اليه ، فان غض طرفه عنها وهملها ، فانه لايغض ولا يهمل ، وهناك الفتن والحروب وتمزيق الكلمة . فما وسع معاوية إلا أن يعلنها أنه عامل على عزل ابن أرطاة تفادياً من سوء العاقبة .

وهكذا كان الانتصار شأن هذه الزعيمة الاجتماعية المغامرة المصلحة ، في كل مواقفها الشريفة الخالدة ، ألا أنها في تاج

(١) قصص العرب ١ـ١٠٠

التاريخ العربي ، أثمن لؤلؤة وضاءة من الذكريات الخالدات ، ألا إنها خير أسوة لاخواتها بنات الانسانية في كل عصر ومصر . . .

وهذا أبو علي القالي ، يذكر في أماليه ، أنه يوم مات المصلح الاجتماعي والانسان المهذب « الاحنف بن قيس » لم تدع النساء ذلك اليوم يمر غفلا في التاريخ ، بل اقبلت إحدى اديبات العراق لتوفيه حقه من تقدير المرأة له ، بمجدة فيه تضحياته في سبيل المصالح العامة التي حبس نفسه عليها طول حياته :

« لقد عشت يا أبا بحر حميدا ، ومت سعيدا وكنت من الرجال شريفا ، وعلى الأرامل عطوفا وفي قولك سيدا ، وعلى الخلفاء موفدا » (١)

وها هي الثائرة الفرنسية الجريئة البطلة « شارلوت كوردي » التي اشتركت في الثورة العامة التحريرية اشتراكا جبارا واعيا مشفقاً ، اشتراكا جعلها ذكرى هدى وحرية ونبل لكل لسان

ألا إنها كانت تفهم من معاني المصلحة الاجتماعية العامة ، ومقاصدها الانسانية الكريمة ، ومثلها التحريرية العليا ، ما لا يفهمه الكثير من زعماء الثورة أنفسهم .

---

(١) اي توفده الجماعات لحل القضايا المعقدة بين الامة والدولة ، للاصلاح وترفيه العيش راجع الامالي ٣ ـ ٢٧

لله هي من اجتماعية نبيلة و « إنسانة إنسانة » تضع موازين المصلحة الاجتماعية الانسانية بالقسط ، تضعها بحساب وفهم وتقدير ، تضعها فوق كل عاطفة وحقد ، تضعها بإباء وشجاعة ومغامرة ونزاهة وإخلاص .

أجل ، تضعها وهي لاتبالي بعد ذلك ما يكون ، من حياة أو موت ، من غنى أو فقر ، من انطلاق او سجن ، ها هي ذي تأبى كل الاباء أن تشيح بوجهها عن السفاح « مارات » الثائر الاهوج الحقود ، حين أخذ يفتك بالضعفاء فتكا ذريعاً ويأخذ المصلحين بذنب المفسدين ، والامناء المخلصين بذنب الخائنين المنافقين والكرام الابرياء بجريرة اللئام الانتهازيين

لله هي كيف لا تأبى ؟ ! ! وفي نفسها الجبارة وقد لايخمد لهيبه المقدس حتى يأتي على كل عود نخر ، وفي قلبها المؤمن الكبير قوة لاتهاب الموت ، ولا ترهب الردى .

شارلوت شارلوت ، هي التي ماعرفت الاحجام أو الخوف ساعة في حياتها

ها هي ذي تستل خنجرها الماضي ذا الحدين ، وتهجم به على السفاح الجبار « مارات » المخيف ، وتطعنه طعنة عميقة نجلاء ولا تنزعه حتى تلقي بقذه قطعة من الفولاذ على الارض ، وتسحقه بقدمها قائلة : « الآن افتديت فرنسا من سفك دمها » (١) .

---

(١) كتاب . الواجب ، لجول سيمون ٢-١٢١

لله ما أجلها إنها أبت أن تتخذ الثورة التي ما أعلنت إلا للقضاء على الظلم والظالمين ، وعذاب « الباستيل » ومعمل العيون ، وقطع الاطراف ، وسيلة لاستعادة الشر في ثوب الخير ، والظلم باسم العدل ، والموت باسم الحياة .

وتضحيات المرأة في سبيل المصالح الاجتماعية ، لها منافعها الجليلة في حياة الامة ، وآثارها الخالدة في تربية العقلية الاجتماعية في نفوس أطفالها .

وقد شهدت فرنسا من تضحيات المرأة في سبيل المصلحة الاجتماعية العامة ، ما يعد بحق هبات من الانسانية العالية والاحاسيس النبيلة لكل أمة ، وإذا كان التاريخ يفخر بأكبر اطباء العالم « باستور » وتضحياته بثروته على سعتها وضخامتها ، في سبيل تحرير فرنسا من الاحتلال الالماني ، وتبرعه بما لم يتبرع به أحد قبله ، أي بكل ثروته البالغة خمسة مليارات ، فان امرأة واحدة من نساء الشعب الفرنسي استطاعت ان تشاطر طبيبنا الانساني الكبير ، عاطفته الاجتماعية النبيلة فتبرعت بكل مليونها الذي تملكه من الفرنكات .

وها نحن أولاء نزجي بين يدي قارئاتنا ما كان من صنع المصريات المؤمنات بالمصالح الاجتماعية العامة ، قبطيات ومسلمات ، وإنهن ليفخرن بهن جميعاً معجبات ، وكيف لا يعجبن ، والقبطيات الكريمات يذهبن إلى مسجد درة آل البيت النبوي المطهر السيدة « زينب » رضوان الله عليها ، ويقفن

حيال ضريحها المقدس معلمات ومكبرات لعظمة تاريخها وجليل آثارها في أنفس المصريات ، ويتحدثن بأطيب الحديث في كلمات انسانية اجتماعية راقية ، وهن لايقصدن من وراء ذلك كله ، إلا وحدة مصر والعروبة ، وخير مصر والعروبة ، وعظمة مصر والعروبة .

وكيف لايفخرن ، وهؤلاء أخواتهن المسلمات يؤدين واجب المصلحة الاجتماعية العامة التي هي فوق المصالح كلها ، يؤدينها في دار البطريركية القبطية ، ليقابلن الانسانية بالانسانية ، والاجتماع بالاجتماع ، ويفكرن في الذين يعيشون على حساب تمزيق وحدة الكلمة ، أي يفكرن في الاعضاء الملوثة المعدية ، ويعملن على بترها قبل أن تمرض وتميت ، وقد القين هناك خطبهن الاجتماعية ، التي اشعت في مجتمعنا العربي اشعاعة التفاهم والتسامح والاجتماع ، بل اشعاعة الحياة والنور . (١)

وما أكبر ما تجد قارئاتنا بعد ذلك في تاريخ حياة الزعيمة الهندية ، والشاعرة المشهورة « ساروجيني ينذو » إنهن يجدنها تملأ بشخصيتها الفذة ، وشجاعتها النادرة ، وإبائها العجيب ، وتضحياتها الغريبة ، أسمى مواقف الجهاد المقدس . التي وقفها الزعيم الأكبر « غاندي »

لله هي ، من زعيمة نذرت نفسها للمصلحة العامة ، ولم تدعها تنازعها على أية مصلحة خاصة . تنازعها تنازعها ؟ عجيب

---

(١) كتاب نهضة المرأة المصرية ص ٣٥

جدا ، أني تنازعها المصالح الخاصة ، ـ مهما تكن ذات جاذبية وسحر في الانفس المرضى الوضيعة ـ وهي التي وطئت عرش الحكم ، الذي رفعه على رأسه مطأطئاً ، شعب يبلغ الخمسة والخمسين مليونا ، في ولاية « أجرا » (١) وطئته بعزة و كبرياء مؤثرة أن تذوب ، في سبيل المصلحة الاجتماعية العامة ، ذوبانا عبقرياً خالدا ، أجلسها على عرش الخلود الانساني ، في كل قلب ينبض بالحياة والاخلاص والمودة المتقدة ، للانسانية جمعاء .

أجل وطئته بقدميها ، واثرت أن تشاطر غاندي أقداس جهاده ، وتذوق بنهم مرارة النفي والسجن والتشريد ، لانها سمعت في أعماق قلبها الانساني ، صوته يدوي بجلال الوطن الاكبر ، ليجمع إنسانه المختلف ، أديانا وأجناساً ولغات

أجل ، سمعت صوته يدوي في أعماق قلبها ، وقد وعت ما وعته ، أن الاجناس واللغات والاديان لا تمزق أبناء الانسانية ولا تنشر التناكر بينهم ، وإنما الذي يمزق وينشر التناكر ، هي الانتهازية المجرمة والتجارة المفضوحة على حسابها ، والطفيليات التي تسربت أوباؤها ، في تلافيف الاديان الالهية ، وقد وعت ما وعته ، أن الله والوحي والانسانية والمصلحة العامة ، والثقافة الرفيعة والحضارة ، تضم البشر بعضهم إلى بعض ، كما تضم الاسرة العريقة ، الاخوة البررة .

---

(١) مجلة الاديب ، حزيران ١٩٤٩

وهذه شقيقة الزعيم الهندي ، ومؤسس دولة الباكستان « فاطمة جناح » لم يفتها موقف وقفه شقيقها « محمد علي جناح » يجاهد ويضحي في سبيل المصلحة الاجتماعية العامة ، إلا وقفته مجاهدة مضحية ، فآثارها الخالدة لاتقل أبدا عظمة وجلالاً عن آثاره حتى ذكروا أنها رافقته في كل أدوار حياته ، وفي كل اعماله ، وشاطرته الاخلاص والنبل والجهاد ، فهي بين الزعيمات الهنديات ، بناءة حرة ومؤمنة مخلصة ، وذكية لامعة ، فخر كبير للهند والاسلام . فمواقف الجندية والطبابة ترفرف لها الاعلام ، والتمريض والاسعاف والصناعات الآلية الراقية ، ترفع لها الشرفات ، فهي للهند والانسانية بمثابة خالدة أديب في تركيا وجان دورك في فرنسا ولوراسيكور في كندا وهند بنت ابي الجيش في العرب ، وأوغستينا في اسبانيا ، وبواديسكا في انكلترا ، . . . على أن مكانة فاطمة جناح الاجتماعية الحاضرة (١) ، لاتقل في شيء عن مكانة اخت الزعيم الهندي ، « الباندیت نهرو » مفوضة الهند ، في الولايات المتحدة اليوم .

ومن من قارئاتنا ، تجهل ما كان من شأن النساء اليعربيات المفكرات ، اللاتي رأين فلسطين ومصيرها المخيف قبل ان يراه الناس حقيقة ماثلة بين أعينهن ، رأينه بعين البصيرة والعلم ، بعين الغيرة على المصلحة العامة ، فما طاب

---

(١) مجلة العالم العربي عدد ٧ السنة الثانية

لهن الغمض ، ولا لذ لهن العيش ، بل قمن فعقدن مؤتمرهن الشرقي الكبير ، وشرحن المخاطر المحدقة بالمجتمع العربي كله وكانت في ذلك الرجال المسؤلين عنه ، وعن مستقبله وحياة شعوبه ، بكتابات لاتزال إلى اليوم آيات بينات في بعد النظر وعمق الفكر ، والتحسس الاجتماعي الواعي واليقظة الفذة

أجل كانت ، وهن العراقيات والمصريات والفلسطينيات واللبنانيات والسوريات . . . ملوك العرب ، كانت فاروق وغازي وعبد العزيز ويحى . . . وصرخن لهم بوقوع اليوم الحتم الذي لا بد أن يكون ! ! بجلبابه الحالك وكل مخازيه ومسئولياته . وصرخن وصرخن ، وذهبت صرخاتهن أدراج الرياح (١) وقد أردن أن يبرأن إلى التاريخ والحق والقانون وأن يبرأن إلى الله قبل كل شيء ، فسجلن على صفحاته أنهن أدين الواجب ، سجلنه في كتاب لايزال يتلى إلى اليوم .

وهذه الجارة الكريمة الحبيبة ، ذات الامجاد الباذخة ، والتاريخ النير « أمة إيران » قد استطاعت نساؤها المثقفات المجيدات ، أن يقدمن برهانا عملياً داويا ، على أن المرأة في الشرق ، لاتزال كأختها في الغرب ، تضحي بكل ثرائها وكل سعادتها ، بل تضحي بنفسها في سبيل الانسانية ، والمصلحة العامة والخير .

ها هن أولاء ، ينزعن أثمن حليهن ، وآثره إلى أنفسهن ينزعنه ويقدمنه لحاجات الامة والدولة ، حاملات على الحكومة

(١) كتاب « المؤتمر النسائي » المطبوع عام ١٩٣٨

الايرانية ، التي كانت تود أن تعقد قروضاً مالية كبرى ، بينها وبين بعض الدول ، وقد انقذن إيران بعملهن المجيد من فيوض الربا وما يجر وراءه من ذيول وذيول ! !

وها هو ذا المفكر الهندي الكبير ، ـ الأمير علي ـ يطري هذه الحادثة في مؤلفه (١) ويمجدها ، لتكون لنساء الانسانية منارا يستضئن به ، كلما ادلهم ليل الحوادث واكفهر ! !

وفي نهاية بحثنا هذا نرى من الواجب علينا أن نؤكد لقارئاتنا ، أننا لم نهتم بمنزلة اية امرأة اجتماعية أرخنا لها ونوهنا بأمجادها وذكرها لأنها كانت ثرية أو جميلة الخشم والقصور والمركبات والخيل المطهمة ، لا لا ، ما كان هذا مما يغرينا او يغري سوانا ، وإنما قومنا منزلة المرأة الاجتماعية في أنفسنا ، على مثلها الأعلى الصحيح ، على جوهرها الخالد على اقداسها الثابتة على حقيقتها الازلية ومعنوياتها الذاتية التي لاتزول وإن زالت المادة وتداعى الجثمان وطويت الحياة وأصبح الكل ترابا في تراب .

اجل جردنا كل امرأة قبل الكتابة عنها ، من زخارفها الزائلة وتهاويلها الباطلة وثرائها ، ان كانت من ربات الزخارف والتهاويل والثراء ، وعدنا بها إلى حقيقتها الثابتة الى روحها واهدافها إلى مثلها العليا ، معلنين لقارئاتنا أن إكبار المادة قد يتسرب إلى النفوس السطحية الواهنة ويتغلغل في أعماقها فيختلط الامر ، وتضطرب الموازين وتنهار الحقائق .

---

(١) مركز المرأة في الاسلام ص ٨٦

المرأة والمشاريع العمرانية العامة

تلك هي منشآت الحضارة والصناعة والعلم ، والمشاريع العمرانية ، قد تكون من عمل الفرد أو الجماعة والدولة ، وللمرأة في انشائها يد بناءة ذات عزمات لا تقصر عن يد ، على أن العمرانيين من الرجال الخالدين الذين لاتزال اسماؤهم حتى اليوم ، تحيا بها الانسانية ، وهي تستمتع بالنظر إلى جليل آثارهم ، هم يد للمرأة . فلولا أمهاتهم ومربياتهم اللاتي كن يشرفن بالتهذيب على عوالم مجموعاتهم النفسية ، منذ الطفولة ، ولولا تلك الاغاني والاقاصيص التي كن يتغنين بها لهم ، الساحرة الفاتنة ، حول القصور الشامخات والحدائق الغناء ، ودور العلم ، والمؤسسات الخيرية لما تمثلت في أنفسهم صورها الرائعة ، موجهة مؤثرة تأثيرها العلمي في البناء والعمران بكل ما اوتوا من قوة ، إذن ، فروح انشاء المشاريع العمرانية العامة في الرجال ، سواء كانوا ابناء او إخوة أو أزواجا ، إنما ترجع تربية نوايات بواعثها للمرأة ، سواء كانت اما أو أختا أو زوجا ، فالنفوس أبدا تشتمل على أميال الخير والشر ، وعوامل التقدم والانحطاط ، ودوافع العلم والجهل ، وصلاحها إلى هذه أو تلك ، موكول أمره من اول يوم يتنسم فيه الانسان نسيم الحياة ، إلى المرأة : « المرأة هي المربية الأولى » .

وقارئاتنا إذا نظرن إلى تاريخ حياة المرأة ، يجدن لها بالذات فوق تأثيرها العمراني البناء في انفس الرجال آثاراً رائعة حقا ، لا في هذا العصر فحسب ، بل في كل العصور على الاطلاق .

أجل ، فالمرأة يد بناءة ذات عزمات جبارة ، تفترع الامجاد وتبني الخلود ، وما من جيل — مهما تغلغل في القدم — إلا والمرأة وشته بالعبقريات الحسان من قصور شامخة ، إلى حدائق غناء إلى معاهد إلى ثكنات إلى معابد ، إلى أربطة إلى طرق كبرى ، . . وليس هذا حديثا اخترعته الاحلام ، بل حقائق حفل بها التاريخ ، عنينا باستقصائها من شتى الاسفار المطبوعة والمخطوطة ، وبسطناها منجمة حسب العصور .

مشاريع قبل الهجرة

أن الاكبار ليملأ صدور فارئاتنا حين يجدن الملكة المصرية « نيتوكريس » تحفل بالاقليم الشقيق العراق وتنهض بعمارته فتقيم جسراً عظيماً يوصل ما بين شقي مدينة « بابل » ويهمها شأن الري ، والعراق كما يعلمن قطر زراعي خصب يمد الشرق الادنى بكل حاجاته ، فيما لو نظم التنظيم الفني العلمي . من أجل ذلك أقامت فيه « نيتوكريس » البحيرات الصناعية اذ نرى قطر احدى بحيراتها ٢٤٠ ميلاً ، وشقت الجداول والاقنية ، وأصلحت الزراعة كل الاصلاح ، وكأن العناية الالهية التي ترعى العراق الكريم برعايتها ، وتلبسه

ثوب الامجاد والعز والحضارة ، ليكون نبراس الشرق المشع وهداه الوضاء وأسوته الكريمة ، لم ترض عن تلك الاحداث والخطوب التي هدمت إصلاحات نيتوكريس فاتاحت لاحياء هاتيك الاصلاحات بعد أجيال ، الملكة « سميراميس » وهكذا لم تكد تتداعى إصلاحاتها بعد قرون متطاولة وحقب ، حتى هيأ الله للعراق اهتمام الدولة العباسية لاحياء مجاري الحضارة وطرق الخصب والزراعة كما كان في عهد الملكتين الساميتين على أوفى نصيب ، وباليت الذين يسقطون في الانتخابات السياسية الاقليمية كاستاذنا الكاتب العربي الكبير « العقاد » (١) ، لايتذرعون بالطعن في سياسة الدول العربية العامة ، انتقاماً لانفسهم من دولتهم ، بل باليتهم يدركون ما ادركته الامبراطورة المصرية « نيتوكريس » منذ سبعة وثلاثين قرناً ، من أن البلاد المتجاورة التي تجمعها وحدة المصالح ، يجب أن تجمعها وحدة القوى السياسية ، والاقتصادية والعسكرية .

يالله ، ما أخلدها وأكبر نفسها وأبعد رأيها ، وأسمى روحها حين نهضت باصلاحها العظيم في العراق وحين فهمت ، وهي في تلك الازمنة السحيقة ، وليس لجماعات الشرق العربي ،

---

(١) لو أن كاتبنا قرأ كتاب «معني النكبة» لرئيس الجامعة السورية المفكر الكبير والعربي الحر « قسطنطين زريق »، لما جرؤ ان يصم زعماء الساسة المصريين بالخيانة ،وهم الذين يرأبون الصدع ويجمعون الكلمة ، ويشيدون عزة مصر والعروبة بفهم عميق ونظر بعيد .

بومذاك من أسباب التفاهم وتبادل المنافع ووحدة الثقافة والروح ، ما هو لهم اليوم – ما لم يفهمه العقاد.

وإنا نطالب إلى قارئاتنا ، أن يسارعن في الغضب ، حين يرين القطيعة الانسانية تبدو من أثلات قلم حر مفكر ، أفضت به أثرة الغضب لنفسه ، أن أغمض عينيه كي لايبصر وحدة الولايات المتحدة ، وهم مختلفون أجناساً ومتباينون طباعاً ولكنهم اجتمعوا لان المصلحة والعزة والكرامة فرضت ذلك

وما كاد العصر العربي الذهبي ينطوي ، وتظل الأمة العربية في العراق سارحة في مجاهله ، ظمآى والمياه تتدفق بين يديها ، جائعة ومنابت الغذاء تطفح في وجهها خصوبة ، فقيرة والكنوز تذخر في ساحاتها ، حتى قيض الله لها في هذا العصر ، (١) رجالاً نهضوا ليعيدوا للعراق تليد أمجاده ووفرة انتاج أرضه ، وكبير معارفه وسمو منافعه .

أجل ، إن « سميراميس » ملأت صدر التاريخ فخرا وإعجاباً ، حيث استطاعت أن تعبد الطرقات العامة ، وتقرض الجبال التي وقفت في وجهها قرضاً .

---

(١) استقرضت الحكومة العراقية هذا العام ١٥٩٠ مائة مليون جنيه ، كما ذكرنا

راجع عن نيتوكريس ، ميخائيل نعيمة ص ٣٠ ومختصر التواريخ للقس رحماني ص ٥٩

ها هي تسوق مليوني عامل لاقامة الجسور وشق الجداول والانهار ، وإشادة اقنية الري لارواء الاراضي القاحلة البعيدة وتقريب المسافات لربط اطراف المملكة ، وكم لها من قصر مشيد ، ودار حكمة شامخة ، ودار كتب ضخمة ومستشفى أنفقت في سبيله الألوف ، وحسبك لكي تدرك مدى امكانياتها وما اوتيت من سعة ملك أن أعلامها كانت ترفرف خفاقة بالأمجاد والعزة والسلطان ، على أربعة أبحر : الأبيض المتوسط والأسود والأحمر والمحيط الهندي (١) وقد جاءت حدائقها العامة المعلقة ، آية الآيات فنا وإبداعاً وسحراً ، صاغتها يد العلم على طراز ساحر بديع ، جعلت أنهارها تصعد مطردة ، جداول جداول ، والعهد بالمياه تهوى منصبة .

ونحن إذا تعمدنا أن نتجاوز قصر « زينب » الفخم ، وحدائقه الغناء ، معتبرين ذلك مما يمس الاثرة من حظ نفسها ، ويختص بترفها ، فانا لا نستطيع أن نتجاوز آثارها الخالدة ، ومشاريعها العمرانية العامة في بيروت وجبيل وطرابلس التي نوه بذكرها العلامة المؤرخ ميخائيل غبريل اليسوعي . (٢)

---

(١) راجع كتاب مركز المرأة في الاسلام ص ١٠ وكتابنا الاول من هذه السلسلة .

(٢) راجع كتابه التاريخي المطبوع في مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٨٩٤ ص ٣٩

أجل ، كيف يسوغ لنا أن نهمل ذكر مشاريعها العمرانية العامة ، التي سهرت على انفاذها وإقامها وانفقت في سبيلها الثراء الجم ، حتى أوصلت المياه إلى ثلاث مدن تاريخية : من نهر بيروت إلى بيروت ومن نهر إبراهيم إلى جبيل ، ومن ينبوع قديشا إلى طرابلس (١) بله مشروعها العظيم الذي يربوا على كل مشروع قامت به ، وهو جر مياه العاصي من منبعه في « اللبوة » الى « تدمر » الذي لاتزال آثاره وقنواته ومجاريه باقية حتى اليوم ، بل وبعضها ينتفع به

ونحن حين نستجلي تاريخ الأمة العربية القديم ، ونستعرض الأعمال الخوالد التي تمت على يد ملكتها « زينب » نؤمن بقدرة المرأة العربية ، وأنها إذا أرادت النهوض ، فان يقف في وجهها الحواجز لأن عزيمة الانسان الحي المهذب ، اذا كانت مشحوذة قوية اتت بالمعجزات .

ولعل بعض قارئاتنا غير المثقفات ثقافة واسعة ، يعجبن حين يسمعن أثر زينب في هذه المواطن ، لكن إذا قلنا لهن : إن التاريخ الخالد يحفظ لهذه الملكة الكبيرة ذكريات من الاعمال ، والآثار الفذة ، ما يجعل مشروع جر المياه إلى هذه المدن ، أدنى ما كان لها من أمجاد لاتبلى ، زال عجبهن . ألا إن التاريخ ليمد اصابعه مشيراً باعجاب وإكبار إلى رايتها التي كانت ترفرف في شرق الارض وغربها . (٢)

---

(١) أعلام النساء ١ ٥٤٢

(٢) خفقت أعلامها من آسيا الصغرى إلى مصر إلى تخوم نجد —

وهذه الاميرة الفارسية « بوران بنت كسرى أبرويز » التي كانت تسهر على المصالح العامة ، وتدخر لها قواها وإمكانياتها وتقول : « ليس بالحرب والبطش والفتك تكتسب البلاد ، ولا بمكايد الساسة ينال الظفر ، ولكن بالاحسان والعلم والمشاريع العمرانية العامة » .

ولم يكن قولها هـذا مما يقال على السنة السياسيين الانتهازيين ، الذين لايحسنون فكرة الاصلاح ، ولا يفهمون سمو جلال الفضيلة وكبير مكانتها ، بل كان قولا ينبثق عن العقيدة والعمل ، ويصدر عن الجهاد والتضحية ، فهي التي أقامت الجسور ، وبنت القناطر العامة في كل أطراف المملكة ، وبسطت المدن وانشأت القرى والمزارع (١)

مشاريع المرأة بعد الهجرة

هذه « الخيزران » زوجة الخليفة العباسي « المهدي » التي بلغت من حسن الرأي وجودة الفكر ، مبلغاً رائعاً لدى زوجها وكبار رجال الدولة ، والتي لم تدع فرصة تمر وتستطيع أن تصنع فيها صنعاً خالداً ، إلا وانتهزتها ، فكأنها تمثلت الحياة بالماء الصيب المنسكب ، إن لم ينبت

– وهي اول من جرد الساقة لحماية الجيش وارتداده قال خصمها القائد الروماني « خذوا عنها فن الحرب » راجع كتاب نهضة المرأة المصرية ص ٦ وص ٢٥ من كتابنا الاول

(١) مرح العيون ص ٥٢

الغراس الحسن والذكريات الخالدة مر سريعاً وذهب هدراً بين مجاهل الارض ، وأنبت الحنظل والقتاد ، أو ابتلعته ظلمات البحار .

أجل ، شيدت الخيزران المساجد والمعاهد المحتاجين ، وأجرت عليهم الارزاق ، وقضت على التسول (١) بيد برة خصبة ، تفيض خيراً ورزقا وقد نوه المؤرخون بأن كل أعمال المهدي العمرانية ، إنما كانت بايعازها وتأثيرها (٢) ولا يضرنا بعد ذلك ، ما تحدثوا به عن الخصومة العنيفة التي نشبت بينها ، وبين ولدها الخليفة الهادي ، حين غل يديها وحد من نشاطها ، مما لايعنينا ذكره ، وليس مما تعاقدنا على التنويه به . (٣)

وهذه « زبيدة » التي كانت أشبه الملكات العمرانيات من النساء الخالدات بـ « سميراميس » فلها أيضا شق الطرق وتشييد المعابد ، وإقامة الجسور والقناطر ، ولها آية الآيات التي تزيد قيمة وخلودا ، ونفعاً عاماً مستمرا ، من الحدائق

---

(١) كذلك حكومة الاندلس إذ لم يكن أيام عبد الرحمن الناصر متسول ، وكذلك الهند أيام الملكة « راضية » راجع الحلل السندسية للامير شكيب ارسلان ، والكتاب الاول من سلسلتنا هذه « بحث راضية »

(٢) راجع حقوق المرأة في الاسلام ص ١٣٧

(٣) محاضرات الخضري ٢-١٢٦

المعلقة ، لها « عين زبيدة » في مكة المكرمة . فقد آلمها أن ترى الظمأ ، يحرق أكباد الحجيج ، في أسمى مؤتمر عالمي ، وأطهر اجتماع إنساني ، مؤتمر يقصده الحجاج من كل فج عميق ، مؤتمر يبدو فيه السلام والوحدة الانسانية ، في أصدق المعاني الحقيقية الصحيحة .

أجل ، آلمها ذلك ، فأنشأت المشروع العظيم الخالد ، مشروع جاب المياه إلى كل مواطن احتشاد الحجيج ، إنه مشروع فريد من نوعه في العالم لم توفق امرأة ، قبلها ولا بعدها ، الى إنشاء مثله ، مشروع كبير قد التهم جل ثروتها ، وكيف لا يلتهم جل الثروة ، وهو جر الماء من جبال « كرى » القريبة من الطائف ، إلى عرفة فمنى فمزدلفة فمكة ، في بلاد كثيرة الوهاد والجبال ، وفي زمن لم تكن فيه الوسائل الآلية المعروفة اليوم ، ومهما يكن من تنويه بعظمة هذا المشروع . فحسبه أنه انتج لها المجد والخلود والذكر الحسن ، وأنه لايزال بجذافيره كأنه من نتاج هذا العصر . ولله ما أصدق أبي العتاهية حيث يقول

إن مال المرء ليس له منه إلا ذكره الحسن

وها هي تحج ، وترى أثر النعمة ، التي أفاضها الله على يديها لعباده ، فتشكره وتأبى أن تراجع مجلدات الحساب الضخمة ، وتأمر بحرقها قائلة : هذا منه واليه . وحين رأت الحجاج الذين يقصدون مكة ، من طريق العراق ، يجهدون

لقلة الماء ، أوفدت المهندسين والعمال لحفر الابار وتوفير المياه في كل المحطات ، مما لاتزال آثاره إلى اليوم .

ألا سقى الله ابنة جعفر صيب رحمته ، وأغدق عليها غيث غفرانه ، فما كانت خزائنها لتبقى باسمها خالدة ، لو لم تفتحها على مصراعيها ، لانشاء ما أنشأت من المشاريع العامة .

وغفرانك اللهم لأولئك الذين حملوا عليها الحملات العنيفة زاعمين إسرافها في ملابسها وتجاوزها كل حد ، حتى رووا أن ثمن ثوبها الواحد قد بلغ خمسين الف درهم ، (١) ونسوا أن ابنها « الأمين » تألم لبساطة ملبسها ، وخلوه من كل زينة وحلي ، وهو يشاهدها تنفق القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، في سبيل إنشاء المشاريع العامة ، وعاتبها في ذلك عتاباً رفيقا لينا ، ولم يعلم أنها ترفعت عن أن تهبط في معنوياتها ونفسيتها ، إلى مستوى النساء الجاهلات ، اللائي يحسبن العظمة في خرقة تبلى ، وعقد يزول ، وذهب يذهب ، لو لم تصارحه بذلك قائلة « ترفعت يابني عما يفعل النساء ... (٢) ألا إن قطر الندى » أم المقتدر العباسي ، لم تكتف بتشييد

---

(١) راجع مقامات الحريري شرح المقامة التبريزية للشريشي .

(٢) قد اشبهت زبيدة في ترفعها « كورنيليا » ابنة القائد الروماني « سيبون » قاهر « هانيال » القائلة حين سئلت عن ترفعها عن الحلى « حسبي حليا ، هذان المثقفان المهذبان » وأشارت الى ولديها . راجع مركز المرأة في الاسلام ص ١٢٤

مستشفاها العظيم في بغداد ، بل أرصدت أوقافاً لنفقاته ، أوفت على سبعة عشر الف دينار في العام الواحد . (١)

كما « ان تمريد » زوج المعز الفاطمي ، تشيد مسجدها العظيم في قرافة مصر ، وترصد له الاوقاف وتعين له السدنة بكل خشوع وتقوى (٢)

وما أشبه « خاتون » بنت الامير مسعود ، بالسيدة زبيدة ، حين اقامت مواطن وعمارات للغذاء والماء ، لتكون عوناً للحجاج ، وتسييراً لقوافلهم ، وأمنا على أنفسهم ، من حدود الاناضول إلى المدينة المنورة . (٣)

وهذه السيدة « زمرد » أم اسماعيل ، زوجة الملك أتابك زنكي ، ووالدة الملك الصالح محمود زنكي ، أنشأت في دمشق المعهد العلمي المشهور باسمها وأجرت للفقهاء الرواتب الضخمة ، وشيدت بجانبه مسجدها الفخم ، حفظاً لوقت الطلاب من الذهاب إلى المساجد البعيدة ، ويقول المؤرخون : « إن أوقاف هـذا المعهد بلغت من الكثرة ، ما جعلته أغنى المعاهد العلمية » (٤)

---

(١) محاضرات الخضرى ٢–٣٣٥ ومركز المرأة في الاسلام ١١٥ والكتاب الاول من هذه السلسلة ٢٧

(٢) تاريخ الاسلام السياسي ٣–٤٦٤

(٣) أعلام النساء ٣–٢٦٣

(٤) كتاب الدارس ٢٠٥و٥٠٣

وقد اقتفت أثرها زوجة ولدها محمود زنكي ، السيدة « عصمة الدين » بنت معين الدين ، فأنشأت بدمشق معهداً للفقه ، و « صفة » (١) على ضفاف نهر بانياس (٢)

والسيدة « زهرة » بنت الملك العادل سيف الدين أبوب دفعها حبها للعلم ، إلى أن تنشيء المدرسة العادلية الصغرى ، التي لاتزال إلى اليوم قائمة في دمشق ، ولا يزال اسمها منحوتاً على بابها ، وكذلك أرصادها الهائلة التي حبست للنفقة عليها ، وعلى الرغم من نقشها فقد ابتلعها النظار والقائمون عليها في عصور الانحطاط . (٣)

وكم كان رائعاً مطلع الاخوات الثلاث ، بنات نجم الدين أبوب ، في سماء الانسانية .

فاما الاخت الكبرى « ست الشام » فلم تكتف بالمعهدين العظيمين ، الذين اقامتها بدمشق للعلم والمعرفة ، ولم تكتف بما حبست لهما من خراج ، بل حولت قصرها الفخم ، إلى مستشفى يؤمه الفقراء من كل صوب ويطببون ويعطون الادوية والعلاجات ، هبة من فيوض يديها ، حتى قال مترجموها : « كانت تنفق في شراء الادوية ، الالوف من الدنانير »

---

(١) اطلقنا اسم « صفة » على ما يدعونه « تكية أو خانقاه » لوجود اسم صفة منذ العصر النبوي ، وكل الذي جد ، هو التطور في البناء والهدف .

(٢) و (٣) الدارس ٣٦٨

وأما الاخت الوسطى ، فقد أبت نفسها الكبيرة ، إلا أن تساهم في بناء الحضارة والعلم ، وأبت إلا أن تشاطر أختها ، في تشييد المشاريع العامة ، فانفقت في بناء مدرستها « الصاحبية » الهائلة ، الكثير الكثير ، وكم كان طالعها سعيداً وتوفيقها حياً ، فها أنت ذا ترى في صالحية دمشق ، مئات الطلاب إلى اليوم ، يؤمونها زمرا زمرا .

ولم يكن حظ اختها الصغرى ، بأقل من حظها ، فقد شيدت مدرسة وحبست أرصاداً (١)

هذا تنافس الاخوات المؤمنات في سبيل تشييد المشاريع العامة ، وهذا سباقهن في حلبة الخلود والمجد ، وهذه الدنيا تبسط راحتيها إلى اليوم مبتهلة لهن ، أن يسبغ على ذكرياتهن أسمى مراتب الرضوان والخلود .

وكم نرجو لبنات الانسانية الأخوات في مشارق الارض ومغاربها ، من الامجاد والذكرى والاكبار ، ما احرز هولاء الاخوات الثلاث (٢)

---

(١) سنتحدث عن الاخوات الثلاث الانكليزيات المعاصرات شارلوت واختيها ، في كتابنا الثامن ، المختص بذكرى الاديبات مشيرين إلى فضل الاديب المفكر السيد محمد اديب حسن عيتاني الذي افادنا ذلك من اللغة الانجليزية . كما نتحدث عن كبيرات اديباتنا اليعربيات

(٢) عاش الاخوات الثلاث اوائل القرن السابع للهجرة واكبرهن زوج صلاح الدين الايوبي . راجع الدارس ١-٢٧٧ و ٣٠١ وشذرات الذهب ٥-٦٥ والمروج السندسية ٤٠ و ٤١

وهذه الوجيهة الفرنسية الثرية « مرغريتا دي فالو » التي لم تفتن بما كان يفتن به أترابها من الزخرف الزائل ، والبهرج الخلاب المنقضي ، بل جعلت كل همها وعنايتها في خدمة الانسانية البائسة ، وترفيه عيشها وإزاحة البؤس والفاقه عنها فأسست ملجأها الكبير للقطاء (١) بفرنسا وانفقت عليه من الاموال الكثيرة ما انفقت .

وهذه « شوكارقاض » الاميرة الجركسية (٢) التي لاتزال مصر حتى اليوم ، تعتز بمشاريعها الخالدة . أما أجرت مياه النيل إلى كثير من المدن والقرى العطشى ، اما شقت الفجاج ويسرت للسابلة والتجار كل صعب في اوجههم ومهدت لهم ما التوى عليهم ولم يستطيعوا له تمهيداً ، أما أدركت عظمة القرآن الكريم ، وأنه الواعظ والزاجر للنفوس الجامحة المتوثبة للشر والفتك ، فنثرته في كل مكان وموطن للابلاغ والانذار . أما اوجعها أن تبصر فريقاً من ابناء الامة المصرية

---

(١) هي حاملة الراية اللوثرية بفرنسا لها باع طويل في السياسة والادب واللاهوت ، توفيت عام ١٥٥٠ وسيأتي ذكرها في بحث « العلم والادب » الدرر المنثور ٤٩٣

(٢) إن كثيراً من قارئاتنا الكريمات يخلن اخوتنا الجراكسة تعربوا منذ دخولهم الشام ومصر ، وما علمن أنهم استعجموا منذ الازمان القديمة ، وأن استعرابهم هذا لم يكن إلا من قبيل العودة الى الاصل راجع كتاب قهر الوجوه العابسة ، لنسب الجراكسة » ص ٤ الى ٩

الكريمة ، لايكفي دخل أعمالهم لكل حاجاتهم من الغذاء والكسى ليكونوا افرادا صالحين للحياة والعمل والانتاج في المجتمع فأمدتهم بكفاياتهم من الغذاء ، وقدمت لهم الضحايا سنويا؟

ألا إن عام الف ومائة وخمسة وثمانين ، لاتزال صفحته ناصعة بحجة وقفيتها الخالدة .

مشاريع العصر الحديث

وإذا كانت الدنيا بأسرها تفخر بأقدم جامعة لها « الجامعة الازهرية » (١) . فان مصر تعتبر الجامعة الازهرية الدرة اليتيمة التي تتحلى بها ، في كل محفل وتفخر وتعتز وتمجد .

وما من أسرة مالكة رجالاً ونساء منذ عهد الفاطميين البواسل الذين شيدوه إلى اليوم ، إلا وتحتضن الازهر بكلتا يديها ، وتمده بكل امكانياتها قوة وامجادا وسلطانا ومكانة مدركة تمام الادراك أن في الجامعة الازهرية عزة مصر

---

(١) اشتق اسم الازهر من الزهراء سيدتنا فاطمة عليها السلام ، ام الفاطميين ومن هنا قال شوقي :

يا معهداً افنى القرونَ جداره
وطوى الليالي ركنه والاعصرا
في الفاطميين انتمى بنيوعه
عذب الاصول كجدهم متفجرا

يريد به جدهم الاعلى ، باب مدينة العلم وكنز المعرفة ، امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

العلمية الخالدة ، وعزتها بالتالي .

وهذه الاسرة العلوية المالكة ، لم تكن بأقل اهتمامـاً وسهراً وإكبارا وتقديرا من كل الأسر المصرية المالكة ، فكم لمحمد علي ، وإسماعيل وتوفيق وعبـاس وحسين كامل وفؤاد الاول ، من إيادٍ بيضاء مشيدة دورا شامخة ، ومبسوطة مزارع نضرة ، ومذخورة مكاتب فخمة ، ومتدفقة اموالا جمة .

وهذا جلالة ملك مصر « فـاروق الاول » يدون له التاريخ ما يطوق به جيد الازهر كل يوم من قلادة أو لبة أو عقد كريم .

وإذا ذكرنا الرجال من أبنـاء الاسرة العلوية الكريمة ، وكل له فضله وعنايته وخدماته للجامعة الازهرية ، فلا يفوتنا أن ننوه بنساء هذه الاسرة ، وما حوادث أوقاف ام عباس عنا بعيدة بل انظر إلى هذه الاسرة وهي في طليعة امجادها وبسط اعلامها وتركيز قواها ، كيف تقوم « زينب » بنت محمد علي الكبير بكل هـذه الاعمال الخالدة للجامعة الازهرية ، التي دونها لها التاريخ وحفظها في صميم قلبه ، وهؤلاء هم علماء الازهر الابرار لايزالون يبتهلون لها في صلواتهم ، وحلقات دروسهم لتكون رحمات عليها وبركات .

ألا ان أعمالها لست بالقليلة ، وما بالقليل ما يبذله الملكات والملكون ، وكيف يكون قليلا تلك المزارع التي بلـغ ريعها في العام الواحد عشرين الف جنيها ، وكيف تكون قليـلا تلك الرواتب الضخمة التي عينت لمدرسي الشريعة

الاسلامية ، وكيف تكون قليلا تلك المبالغ التي كانت تنفق شهرياً لاعالة اربعماية أسرة من كبار الفقهاء ، وكيف تكون قليلا تلك الاوقاف الجمة التي ارصدتها لاربعة عشر تمسجداً (١) من مساجد مصر الكبرى

وكم من خلود لأحمد باشا المنشاوي في « القرشية » حيث نهض بالعلم والجامعة (٢) الازهرية والحرمين الشريفين ، بما أوقف من الوف الفدادين ، وهـــذه ابنته نهجت نهجه في

---

(١) اعلام النساء ١ــ ٥٢٠

(٢) قد اضطلعت الجامعة الازهرية ، منذ الف عـام أو ما يزيـد بأعباء الدعوة الاسلامية ، وإبلاغهـا إلى الامة المحمدية بقسميها ، أمة الدعوة وأمة الاجابة ، أبلاغاً سامياً رفيعاً يليق بكبير مـكانته العلمية

وإنا نأمل في عهد جلالة الملك « فاروق الاول » وشيخ الازهر العلامة الشيخ « مأمون الشناوي » وهيئة كبار العلماء والحكومة المصرية ، أن يستعيد الازهر رفعة مـكانته التاريخية وعظمة قواه المعنوية ، فيدخل كل العـلوم من طب وهندسة وحقوق وفلسفة وسواها ، شأنـه بالامس ، مؤسسا لكل فرع كلية خاصة ، حتى يصدق وجود اقدم جامعة في مصر ، إذ لايزال تاريخ الازهر لليوم ، يحفظ لجوء الفيلسوف اليهودي الاندلسي « موسى بن ميمون » إلى الازهر حين سقطت الاندلس الاسلامية ، ولم يجد من يضمه ويفيد من علمه سوى الازهر .

عنايتها بالمصالح العامة وسهرها عليها ، ولا غرابة إذا اوقفت مائة واربعين فدانا لمدرستها المجانية (١) ، فان النشأة الصالحة السامية ، في البيئة الكريمة ، لابد أن تؤتي أكلها طيباً

وكم يسعدنا أن ترحل قارئاتنا إلى « شبرا » في مصر ، ويشاهدن ذلك المسجد الفخم والمدرسة المجانية الكبرى بجانبه ، وذلك المستشفى العظيم ، وينظرن إلى اسم المحسنة الكبيرة « الخازندارة » وهو في أعماق القلوب ينضر بالحنان والاشراق ، ويسطع بالاكبار والاجلال ، وتلك الالسنة الرطبة التي تمطره بسابغ الرحمات ، ليدركن عظمة المرأة الخيرة الصالحة ، وجلال مكانتها في انشاء المشاريع العامة

وهذه النقية البرة « هيلانة سياج » التي أخافها فسو الالحاد ، وجنوح الناس عن هدى الوحي فشيدت بأموالها الخاصة في مصر كنيستيها الشهيرتين ومدرستها الخيرية المجانية للاصلاح ، والدعوة إلى الله ، وقد حبست لهذه الغاية السامية اوقافاً بلغت نفقاتها مائة وعشرين الف جنيها مصرياً (٢)

وهذه فتاة الهند العزيزة العمرانية المثقفة « بنديتا رامباي » التي ضربت الجهل بعصاها المقدسة ضربة قاضية ، وشيدت « دار الحكمة » في الهند ، هذه الدار التي قتلت الجهل واشعت النور وحركت العقول وأثارت الاذهان وطعنت الفقر طعنة نجلاء بما اقامت من مصانع للاشغال اليدوية .

---

(١) اعلام النساء ١ - ٢٢٥

(٢) توفيت عام ١٩٢٨ ، اعلام النساء ٣ - ١٦٤٤

وكنيسة للعبادة (١)

وإذا ارادت قارئاتنا أن يدركن جليل مكانتها في الشابات والشباب في الهند ، وسعة نفوذها وصدق ايمانهـا في الدعوة إلى الله فحسبهن ان يعلمن إذا سمعن اطلاق اسم « موسى الهند » أنها هي المقصودة

ولا يفوتنا أن ننوه بالمعهد الكبير الداخلي الذي انشأته في دمشق السيدة « سامية قبانية » لايواء اليتيمات والمعوزات وتعليمهن العلوم والصنائع وتقديم كل حاجاتهن (٢) على أحسن حال وأنبل غاية

وقارئاتنا لابد أن يجدن روح إيمان السيدتين البرتين « مدام دومط ومدام بسول » ، ويكبرن اخلاصها له ، وسخاءهما في سبيله . . .

نعم شيدت « مدام دومط » كنيستها الضخمة في بحمدون لتكونا عوناً على تذكير المصطافين بالهدى ، وزجراً للمجدفين الملتوين على شهواتهم التواء الأفعى . وشيدت « مدام بسول » بيعتها الشامخة في بيروت لنفس الغاية .

وعملها هذا فوق كونه حرباً للمادية الطاغية وحفظاً لروح الشرق المؤمنة الوادعة ، فانه حث للنساء المنطويات على ثرائهن انطواء العقرب على نسلها المجتمع على ظهرها ، إذ كل ما ينلنه من وراء ذلك هو الابادة الماحقة مثلها .

---

(١) توفيت هذه المحسنة عام ١٩٢١ كتاب اربع شهيرات

(٢) هذه المحسنة لاتزال تجد في تقدم معهدها الى اليوم حفظها الله ورعاها

فياحبذا ذكر السيدتين النبيلتين ، ويا حبذا ما أغدقتا في عصرنا هذا على جلال الايمان ، من أمجاد روحيهما الطاهرتين

وكنا نود أن نبسط القول في مشاريع نساء أوربا وأميركا المعاصرات وتركيا والباكستان والهند ، ونسائنا في المجتمع العربي ، ولكن خفنا على كتابنا هذا أن ينقلب معلمة ، على أن معلمة التراجم التي نعنى اليوم بجمعها ستشمل في مجلداتها ما نضطر إلى إرجائه ، خشية الاطالة المملة .

وحسبنا الآن أن ننوه لقارئاتنا الكريمات ، بذكر المجاهدات القائمات بأعباء جمعيات الصليب الاحمر والهلال الاحمر ، وجمعيات مقاومة السل والرفق بالحيوان ، والناهضات بتأسيس المستشفيات والمعاهد ، والعاملات على نشر الثقافة والعلم في البيئات الفقيرة الجاهلة والقرى السحيقة والصحارى البعيدة والواحات النائية .

ألا إن جل الأيدي العاملة البناءة ، والقلوب الطاهرة الخفاقة بروح الانسانية ، والنفوس المضحية المجاهدة المتسامحة هي من صنع المرأة .

وقد تعجب قارئاتنا المثقفات لامساك الثريات في الشرق العربي اليوم ، دون أن يرصدن بعض ثرائهن للأعمال الاجتماعية العامة ، شأن جداتهن من قبل ، اللائي حفظ التاريخ لهن أطيب الذكريات الخالدة ، ولكن قارئاتنا لو علمن أن هؤلاء الثريات جاهلات ، لايعرفن قيم الجود

والذكر الحسن على السنة الاجيال ، ولا يدركن المنافع التي ينتفعن بها في حياتهن وبعد موتهن ، لعذرهن عذر الفاهمات أن أمساكهن ليس بخلا كما يصمنهن ، إذ هن يدركن أن المال سيتركنه في أرضه ، ويقذفن في حفرهن المظلمة دونه ، ولكنه الجهل ، والجهل - يا اسفاه - ينهض عذرا في مثل مجتمعنا !!

وكم يفرح قارئاتنا أن تزيح عن أنظارهن ، سدف ظلمات الشقاء ، وضعف استرخاء العزائم وارزاء الاهواء الشنيعة ، التي تراكمت على بلاد اليمن الشقية اليوم .

وكيف لايفرحهن أن يشاهدن في موطنهن الحبيب « اليمن » ، عربا غير هؤلاء العرب ، وجماعة غير هذه الجماعة ، أي يشاهدن بلاد اليمن السعيدة ، كما نعتها المؤرخون يشاهدنها في جلال أمجادها ، وغرائب صناعاتها ، وبطولة ابنائها ، وعبقريات ساستها وأفذاذ إخلاصهم ونبلهم . (١)

ونحن إذ نعرض لهن اليمن في أفوافها التاريخية . المسحورة الرائعة لانبعد كثيرا إلى سبأ وحمير ومعين ، وعصور بناة السدود ، ومشيدي القلاع والحصون ، بل نعرضها في عصر جد قريب اليمن ، عصر الملكة العظيمة « هند بنت أبي الجيش » ، الملكة التي أوجعها ، أن ترى شيخوخة والدها تتهدم ،

---

(١) عرف ساسة اليمن بالدهاء وبعد النظر والاخلاص ، وهذا سياسي يماني « المنصور بن أبي عامر المعافري » استطاع أن يوحد الاندلس بعد ان كادت تتمزق .

وعبث ولاته يربو يوماً فيوماً ، خصومات وفتناً ودماء ، رغبة في الملك الزائف ، وإمعاناً في البذخ والترف ، على حساب الضحية المسكينة « الأمة » وما كاد والدها يسلم حياته كلها إلى التاريخ ، ويستريح إلى الموت في عالمه الثاني ، حتى الفت هند نفسها ، وجها لوجه ، حيال مملكة متداعية وشعب ذبيح ، وولاة اقتسموه غنائم ، وأقاموا موائد حظوظهم على امتصاص دمه ، وعدم وحدته ، فسخرت بهم جميعاً وأخذت تفكر في الاصلاح وترميم الصدع ولم الشعث على الرغم منهم.

اجل ، فكرت طويلا وشمرت للعمل والمغامرة ، وأبت أن تستنيم إلى الدعة والراحة ، متلمظة بما فضل بين يديها من رقعة مملكة مبتورة ، تاركة شئون الأمة تجري في أهوائها إلى الفوضى ، إلى الانحلال إلى الموت ، ألا إن هنداً ملكة مصلحة بطلة مفكرة ، سمعت صوت التاريخ والعروبة ، بل سمعت صوت الله يجلجل في أعماق وجدانها الانساني الحي ، وضميرها المهذب الفذ ، مهيباً بها : هلمي هلمي ، إلى الحياة إلى المجد ، إلى خير العمل ، سيري سيري ، فان الله يقيض لك الانصار والمجاهدين الابطال ، سيري فان الذين يسعدهم ما يسعد الجماعة كثير كثير ، انهم ينتظرون اليد الجريئة التي ترفع العلم ، حتى يهبوا من كل مدينة وقرية كالأعاصير الحمراء .

ها هي ذي أبرمت أمرها ، وجمعت ابطالها ، ونادت في كل مكان بوجوب الوحدة السياسية ، وتحطيم العناصر

المريضة الممزقة ، نادت وقد أتبعت نداءها بالنضال العملي والذود والدفاع ، حتى أتمت الوحدة السياسية في السنوات الاولى من ملكها ، ولم تكتف بارجاع الحياة الموحدة ، الى المقاطعات المنفصلة على أيدي أولئك الولاة ، بل أبكاها وأوجعها ، أنها كانت ترى مقاطعات عربية أخرى ، تعيش في عزلات مشلولة ، وبعيدة عن حيوية هيكل الامة الموحد ، وهي في أشد الحاجة الى سعادة التعاون وقوة الاجتماع ، وسمو تبادل المنافع والمصالح ، ولكن مثلها في جلال حيويتها العملية المغامرة ، لايلذ لها طويلا الحسرة والبكاء ، وهي تملك قلبها الكبير ، وفكرها الثاقب ، وعبقريتها السياسية ، ودهاءها الخير النير : أثارتها مرة ثانية حربا شعواء وأخذت تضم ما استطاعت من الاعضاء المبتورة الى الجسم « الام » .

أجل استرجعت هند الولايات التي انفصلت بعمل الخائنين الممزقين في حياة أبيها ، استرجعت : صنعاء ، صعدة ، نجران ، بيحان ، (١) لحج ، (٢) ، أبين (٣) ، عدن (٤) ، وسائر المخاليف ، وحضرموت ، ومرباط .. وضمت اليها شطرا من الحجاز . . . ولم يبطرها هذا العمل الكبير ، ولم يصرفها عن التبصر في عواقب الأمور ، ولم يغرر بها ، بل علمت

---

(١) تتبع الحكومة السعودية

(٢) و (٣) محميتان

(٤) في رعاية بريطانيا

أن بناء الوحدة السياسية في الامة ، مهما اتسع فهو كالهيكل العظمي ، لايقوى على البقاء والاستمرار إلا بوفرة عنصر الحياة الاصيل « الدم » ، وعنصر الحياة هنا ، الثروة . والامة التي تفقد الثروة لاوزن لاجتماعها ، على أن مادة الحياة لا تستمطر من السماء ولكنها تستنبت من الارض ، وهي وشيكة الحصول ، لاتحتاج إلا إلى العزائم الجبارة ، والعمل الدائب المستمر والضرب على أيدي العاطلين البلهاء ، الذين يضيعون حياة الامة ، ويقضون عليها ، ففرضت العمل الاجباري العام ، وحرمت البطالة ، ومجالس اللهو والعبث ، ودفعت الجميع إلى العلم ، إلى الثروة ، الى المجد ، إلى القوة ، إلى الاعداد ، فرضت ذلك في توجيه الامة ، إلى مشروعيها الخطيرين .

١ ـ المواصلات

أجل فتحت أربعة طرق رئيسية كبرى ، تربط أجزاء اليمن بعضها ببعض ، وبالمقاطعات المجاورة كالحجاز ونجد .

١ـ طريق ساحلي عظيم يوصل داخل اليمن بسواحلها وعدن بمكة ساحلياً ، مارا بباب المندب ومخا وجدة فمكة .

٢ـ طريق داخلي يوصل المدن بعضها ببعض ، من اقصى اليمن حتى مكة ، مارا بحبس وزبيد وجيزان فمكة

٣ـ طريق تجاري موجز ، يفضي من عدن إلى مكة رأساً ، وهو اعظم الطرق وأوفرها تكاليف ، لأن فيه

الاتفاق وتذليل الجبال ، ولذا أسماه الناس ، الطريق العليا ، وهو مار بالجند ، وإب ونقيل وسمارة وذمار وصنعاء والطائف .

٤ - طريق حضرموت - لحج ، مارا بعدن ، وطوله عشرون مرحلة ، وهو لايقل عن الطريق العليا في عظمته ومنافعه .

وهنا نقلب قارئاتنا كفوفهن مستغربات ، كيف استطاعت هند أن تنهي مثل هذا المشروع الكبير الكبير ، في كل التاريخ العربي الذي مر على دول اليمن ، ولكنهن إذا علمن عزائمها الجبارة ، وما أوتيت من عبقرية وإخلاص ، يرين ذلك يسيراً ، فما من مستحيل تجاه عزائم الجماعات ، إذا اخلصوا النية ، وتكاتفوا على العمل في سبيل الانشاء والبناء

ولعل بعض قارئاتنا ، يخلنها لاتعدو أن تكون جادات ضيقة ، تمتطيها الرواحل ، بل إنما هي طرق بمعناها الفني الحديث ، لم ينقصها إلا القار ، لها ما نعرف من سعة ، إذ يقول المؤرخون : تسير فيها ثلاث رواحل محملة بعضها إلى جانب بعض ، ولا يمكن أن تسير ثلاث رواحل في طريق إلا إذا كان مختر قا وسيعاً ، على أن آثارها الشاخصة ، تدلنا على ذلك . وتلك الطرق تحوي محطات رسمية ، وفي كل منها مسجد ومئذنة ونزل وبئر ماء ، ويبلغ طول كل واحد منها أربعين مرحلة . (١)

---

(١) المرحلة المتوسطة اربعون كيلو متراً .

٢ ـ مشروعها الزراعي وتنظيم الري

إنها عملت بصرامة وجد ، لانعاش المشروع الزراعي ، وإعادة ما لليمن من خصب في عصرهـــا الذهبي السعيد ، فأصلحت بعض السدود ، ورممت مجاري الميـــاه القديمة ، وشيدت القناطر المتداعية ، حتى أوصلت المياه إلى كثير من المواطن ، وبذلك نهضت اقتصاديات اليمن في عهدهـا نهضة مجيدة ، وأثرى الناس وحسن عيشهم ، فقـام العمار في كل مكان ، وأعيدت المدن إلى اتساعها القديم ، بل جددت مدن كبرى كمدينتي « الكدراء والمعفرة » واستفاض العلم ، وقضي على البطالة والخمول والانزواء ، وعرف الناس روح الاسلام العملية ، وازاحوا عن كواهلهم أثقال الوضاعين وأوقار خزيهم ، كما شيدت مسجدها الكبير في « زبيـد » الذي لايزال إلى اليوم آية الآيات في عظمة البناء .

وأجل أعمالها المباركة الخالدة ، هو قيامها بتجديد مسجد صنعاء العظيم ، الذي شيد بأمر رسول الله ﷺ ، في العام السادس للهجرة ، وهو مسجد اليمن المبارك ، وموطن العلم ومجمع العلماء ، وفيه المكاتب والكنوز الخطية للان ، وايضاً توجهت عزائمها إلى تجديد جامع « الجندَ » الذي شيده المعلم الاسلامي الاول لليمن ، بعيث رسول الله الصحابي الجليل « معاذ بن جبل » كما جددت بناء مسجد « عدي » الذي أنشأه الخليفة الاموي العادل « عمر بن عبد العزيز » وبكلمة موجزة ،

توجهت عنايتها لتجديد آثار اليمن جميعا ، خشية التداعي والاندثار ، كالاسوار والحصون ، بله ماشيدته في حكومتها من مدارس ، ولم يجد لها العلماء مثيلا في التاريخ ، بعدلها ونقوائها وزهدها ، وعفافها وابتعادها عن اقتناء الزخارف لنفسها ، إلا عمر بن عبد العزيز . وقد ظلت تسوس مملكة اليمن السعيدة ، على هذا اللون السامي الرفيع ، أربعين عاماً ، وهي تعد بحق أسمى لؤلؤة في تاج التاريخ العربي ، وقد استضاءت ذكراها في كل موطن ، واحتذى آثارها الملوك والاباطرة وقدموا لها نفيس الهدايا ، وكانت وفاتها (١) أكبر كارثة في المجتمع العربي ، حتى أنه عادت إلى اليمن بعدها خصومات النفعيين الاشرار ، وبرزت قرون الأبالسة ، ونهض المزقون الآثمون ، يستعيدون صغارهم وفتنهم ، ويسخرون الشعب المسكين تسخير الاماء ، ويسوقونه للمجازر سوق السوائم ، ولولا أن الله أراد أن يمد يد المعونة والانقاذ ، والرعاية والحفظ لقومنا في اليمن ، لكان الخطب عظيماً ، والبلاء جسيماً .

أجل أمدها في شخصية الملكة المحبوبة ، « أسماء ابنة شهاب » ، أمدها في حسن سياستها وجليل أعمالها وكريم

---

(١) والذي يبكينا ويؤسينا حقا ، أن تذهب مثل هذه الملكة المصلحة البرة ، ضحية الايدي الغدارة الآثمة ، وهي بطلة اليمن بل المجتمع العربي ، بل الانسانية جمعاء .

اخلاصها ، وفي جملة مشاريعها العمرانية الكبيرة ، ولئن كانت « زبيد » مطلع شمس هند ، وعاصمة ملكها ، فان صنعاء مطلع شمس أسماء وعاصمة دولتها ، ولم تكن اسماء حتى في يوم طفولتها ، بالفتاة الغرة اللعوب ، وإنما كانت بمقتضى نشأتها الصارمة العنيفة ، أبعد المجد ما تهدف اليه . وهل يأتلف اللهو وطلب الأمجاد ، والبطولة والمغامرة وبعد الهمة والخلود مع اضاعة الوقت؟ والمؤرخون يعزون جد هذه التربية الفذة ، إلى والدتها المربية الحازمة ، إذ ركزت في نفسها الشمم والاباء ، وطلب المجد والخلود ، وهي التي كانت تقول لها دائماً : « أنت جديرة بالملك ، ولا يصلح للافتران بك إلا ملك ! » فأسماء نشأت متبتلة ، لخدمة الأمة ، وإعادة أمجادها وجمع كلمتها ، والسمو بها إلى المثل العليا ، وقد تزوجها « ابن عمها علي الصليحي » ولكنها كانت تحن أبدا إلى السياسة وخدمة الأمة ، والنضال والجهاد ، وبالاحرى حين الفت اليمن ، بعد موت الملكة الصالحة السيرة هند ، تطعنها في احشائها الفوضي ، وتمزقها إربا عداوات المجرمين ومنافع الاقطاعيين اللؤماء الذين يعيشون بدماء ضحاياهم .

ها هي ذي تنادي بوجوب الاصلاح ، وتستعين بأختها الكبرى « مصر » حتى أنها نادت باسم خلفائها الفاطميين ، وأقامت زوجها لتنظيم الدعاية الفاطمية في اليمن ، واتجهت هي بكل نفسها لادارة السياسة والملك ، إلا أنها وجدت من المصلحة والحزم ، أن لاتفصل اليمن عن هيكل المجتمع

العربي – وهي عضو رئيسي فيه حذراً عليه من التمزق والتباب إذ ذلك كل ما يفيده العضو المنفصل ، وهل يكون العضو حيا إلا بالوحدة الجامعة بينه وبين الاعضاء كافة ، فالامم الانسانية ليست كأمة البعوض ، يحييها التفرق ويميتها الاجتماع.

وقد عرف علماء اليمن فضل جهادها ، وجليل أعمالها في جمع الكلمة ، وإبادة المفسدين المزقين ، فهتفوا باسمها ، ودعوا لها على ذرى المنابر في صلواتهم ، وأطلقوا عليها هذه الأسماء ، الدالة على كبير مكانتها في أنفسهم « كافلة المؤمنين ، الملكة الحرة ، السيدة الكاملة » وقد فضلوها على بلقيس ورأوها أعظم منها دولة وسلطانا لعظيم مشاريعها العمرانية التي أنفقت في سبيلها الاموال بكل سخاء ، وهذا شاعرهم يقول :

رسمت في السماح سنة جـــود

لم تدع من معالم البخل رسما

قلت إذ عظموا لبلقيس عرشاً

عرشُ أسماء من ذرى النجم أسمى

ولم تكن أسماء في اليمن ملكة فحسب ، بل عاهـــلة تغلبت على خمسة وثلاثين ملكاً ، اصبحوا يـأتمرون بأمرهـــا ويحجرون معها ، وقد آثرها أهـل اليمن على شقيقها الامير « أسعد الصليحي » بالمبايعة ، على أن شقيقها نفسه ، كان يجلها ويؤثرها على نفسه ، ويعرف لها فضلها ، وبعد نظرها

ودهاءها السياسي وإخلاصها ، وإنه رضي أن يكون من جملة ولائها المخلصين الذين ساهموا في بناء مجد اليمن معها .

والذي زاد مكانتها في أنفس الناس ، أنها كانت تفضل انفاق الاموال ، في سبيل المصالح العمرانية العامة ، على خزنها ، أي كانت تسير على سنن الخلفاء الراشدين ، الذين لايبقون الاموال تتكدس في بيت المال ، وكان هذا الانفاق يسعدها ويلذها ، وكثيرا ما كانت تتمثل وهي تأمر بانفاق المال ، بقول الشاعر .

إذا المال لم تنفقه في مستحقه
فما هو إلا حسرة ووبال

وانفاقها هذا يدلنا على أنها تفهم أن الاموال ما جمعت من أفراد الأمة ، إلا باسم المصالح العامة ، فحجزها عنها إثم واختلاس ، لاترضاه هي ولا الشريعة .

على أن قارئاتنا يجدن أسماء ، فوق كونها عاهلة سياسية محنكة ، وزعيمة اجتماعية مصلحة ، ومؤمنة خيرة نبيلة ، يجدنها متسامحة غير مؤاخذة ولا منتقمة ، مع قدرتها على المؤاخذة والانتقام .

هؤلاء هن يشاهدن جماعة من الخائنين الآثمين ، يتعاقدون على اغتيالها ويأتمرون بها ، وهي التي تعمل بجدة لحياتهم ، وإسعادهم وجمع كلمتهم ، ولكن الوباء وإن كان يعيش على حساب الجسم ، إلا أنه يهدمه ثم الهدم . وإن كان هلاكه محتماً معه ، فانه وباء . وهكذا هجم هؤلاء الاشرار البغاة

الآثمون ، على قصرها في صنعاء ، وقتلوا حرسها وزوجها وأقرباءها ، وكبلوها أسيرة ، ناسين أن لله عينا ، ترعى المصلحين ، وقدرة لايعجزها شيء ، تنتصر لهم وتذود عنهم ، فلا ينمْ ظالم عما جنت يده على العباد فعين الله لم تنم

أجل رعتها عين الله ، وذادت عنها قدرته فقيض لها رجالاً ابطالاً ، مؤمنين بجليل خدماتها ، وكريم إخلاصها ، ومنافعها العظيمة ، للعروبة في اليمن ، فالتفوا حول ولدها البطل الباسل ، القائد « أبي المكارم » وهاجموا الثوار الذين فروا بها إلى زبيد ، هجوماً جبارا عنيفاً ، وانقذوها من أغلالهم العاتية القاسية ، وأعادوها إلى عرشها آمنة مطمئنة وأتوا بأولئك الثوار الآثمين الخائنين بين يديها ، وهم مشدودون إلى الجامعات ، ليعدموهم جميعاً تحت اقدامها ، ولكنها وقفت حادبة باكية وهي تقول : « لا لا : هؤلاء ابنائي وإخوتي ماغرر بهم إلا ضعف عقليتهم وجهلهم ، ألا إن دمهم دمي وحياتهم حياتي » !!

ولعل قارئاتنا لن يجدن في تاريخ الملكات نظيرها ، سوى ما يلمحنه من اشعاع روح « كاترينا » الانساني ، حين حالت دون إعدام المتآمرين على حياة زوجها . . . وأسماء لم تشأ أن تدع شئون اليمن من بعدها فوضى ، تتلاعب بها الساسة والزعماء ، ويمزقونها كل ممزق للامتصاص والاثراء ، على حساب موتها ، كما تركتها هند بل نجدها واعية يقظة نافذة البصيرة تدرك ما يكون بما كان ، أي

يصدق عليها قول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم « السعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ بنفسه »

أجل اعطتها الاحداث السياسية والازمات التي مرت باليمن بعد مقتل هند ، درسين بليغين ، الاول تهيئة ولدها « أبي المكارم » ليكون قائدا باسلا يستطيع الذود عن مبادئها الاجتماعية لدى العدوان ، والثاني اهتمامها باعداد من يخلفها سياسيا في ادارة الدولة ، فأعدت لهذا الامر « أروى ابنة أحمد الصليحية » ولبعد نظرها ، وخشية الخلاف والشقاق عليها ، جعلتها زوجة لنفس ولدها أبي المكارم .

ولعل قارئاتنا ينتقدنها في إيثارها الملك لأروى دون ولدها ، ولكنهن لو نظرن اليها ، نظرها ، وتعرفن متعمقات إلى مافي نفس أروى ، من جليل المواهب العبقرية الفذة ، وتفرسن في بوادرها فراستها ، التي اظهرت الايام صدقها ، لما نقدنها في ذلك الايثار ، أظهرته يوم أن وقفت أروى في اليمن تحافظ على كيانه السياسي الموحد ، وتسمو بنهضته إلى الكمال بارة ، زاهدة في مظاهر الترف ومفاتن العيش الانيق ، بل حتى في مفاتن الزوجية التي هي شغل أكثر النساء الشاغل نعم أخذها شيء من غرور الملك ، في أول عهدها ، أيقظه في نفسها ، نفاق المنافقين وإسرافهم في الثناء والاكبار ، والتمجيد والتأليه ، حتى أنها أخذت تغدق الاموال يمينا وشمالاً ، مسرفة في بناء قصرها « دار العز » فعلت ذلك استجابة لايحائهم ، وإعلاء

لاقدارها وخصائصها وتمجيداً لجلالها . واخيرا فطنت إلى تدابيسهم وشرورهم ، وأنهم قوم انتهازيون ، فأبعدتهم ، كما فطنت أن الاموال التي انفقتها في بناء دار العز ، هي أموال الامة ، فحاكمت نفسها إلى الدستور « القرآن » بايمان وصدق وإنصاف ، قبل أن تحاكمها الامة ، فما رأت في تشييده أية مصلحة عامة فحكمت بتسليمه إلى الامة لانه حقها الشرعي ، فجعلته مسجدا ، ومنهلا للعلم وداراً للكتب .

وهكذا اراد الله سبحانه وتعالى لهذه الملكة ، العزة والخود والكرامة ، فأنقذها من بلايا الغرور والاستئامة إلى دعة الملك وراحة السلطان ، فنزلت إلى الشعب وآمنت عمليا بأنها فرد من أفراده تخضع لما يخضع له ، وتسعد بما يسعد به ، سياسة واقتصاداً وأخلاقاً وعملا . وكان من نتائج ذلك التدبير الحكيم ان ثورة « سعيد بن نجاح » لم يعبأ بها الشعب ، ولم ينتف حولها سوى بعض الناقمين الذين لاغناء فيهم ولارجاء عندهم ولولا هياج « ام المعارك » زوجة ابن نجاح والتفاف اقربائها حولها ، لما عبئت أروى بالثورة وحملت عليها تلك الحملة العنيفة التي أسفرت عن مقتل ام المعارك وزوجها .

والواقع أن أروى لم تكن بالمرأة الغافلة ، بل كانت أبداً ساهرة على وحدة الشعب ، ترصد كل من تحدثه نفسه بتمزيق الامة ، وتأتي عليه قبل أن يتفاقم أمره . أجل قضت على الثورة والثائرين ، وأخمدت أوارها وارجعت للامة هيبة الوحدة وجلال الاجتماع ، واعطت درساً دامياً لكل

مفسد سفاح ، يحاول أن يعيش على حساب انشقاق الامة وامتصاص دمها .

وها هي ذي أحبت أن تلتمس القربى لدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنفقت من الاموال الكثير ، في توسعة مسجده في صنعاء ، واقامت أروقة حوله ، مما جعله إلى اليوم ، ذكرى لعنايتها وتخليداً لملكها ، وحسبها شرفاً وفخراً أنها آخر ملكة نالها شرف الزيادة فيه . ولا يزال المسافرون إلى اليوم بين « تعز وصنعاء » وبين « إب وصنعاء » يستمتعون بآثار يدها السكوب ، في انشاء الطريقين الواسعين المعبدين بالحجارة الضخمة الممردة ، البالغين ألوف الاميال ، كما يستمتع أصحاب المواشي بمروجها الموقوفة ، ومجاري المياه التي تتدفق هنا وهناك ، لارواء الانسان والحيوان والنبات ، متدفقة في اقنية فنية دقيقة ، تدل على كبير عنايتها بالاصلاح والخير العام والمشاريع العمرانية . ولا نزال إلى اليوم نشاهد قصرها الصيفي « المحادر » يرف بشرفاته ، ويتسامى بداره كأنه « غمدان » .

وقد حدثنا صديقنا العلامة الاستاذ رشيد سنو (١) مدير

---

(١) أحد أساطين النهضة العربية الحديثة ، وله اليد الطولى في خدمة الاقطار الشقيقة ، وهو الذي تلطف باهدائنا فحوى سيرهذه الملكات الثلاث اللائي حكمن بالتتابع من عام ٣٩٦ لعام ٥٣٢ هـ مشيرا إلى مصادرها المطبوعة والمخطوطة .

أما المطبوعة ، فتاريخ ابن خلدون واليعقوبي وتاريخ مساجد

الاذاعة والنشر في صنعاء ، أنه كان يكبر الصلوات البرة وهي ترتفع من أفواه الشعب ، المنتفع بآثارها ومشاريعها العمرانية .

ألا ايقظ الله لشعب اليمن الباسل المجيد ساسة دهاة مخلصين يعملون سواهرين مجدين بكل شهواتهم الذاتية في سبيله . .

صنعاء ، وتاريخ عمارة طبع لندن عام ١٣٠٩ و ١٨٨٢ . واما المخطوطة ، فبغية المستفيد ، وتاريخ صنعاء ، والسلوك ـ وقرة العيون ، وقلادة النحر ، وتاريخ الجنيدي ، والاعتبار انباء ابناء الزمان ... وتوجد متفرقة في دار الكتب المصرية ومكتبة صنعاء ومكتبة الامام يحي ومكتبتي كوبر لى وأياصوفيا في الاستانة .

وإنا نجد من الوفاء والاخلاص أن ننوه بأمجاد شقيقه الاستاذ « رفيق سنو » صاحب جريدة بريد اليوم ، لما يبذله لنا من مساعدة علمية تجاه إخراج هذه المجموعة التي يعنيه أمرها .

الفهرس

٣ المقدمـــة

١٧ المـــرأة والسلام

٣٦ ، والمنزلة الاجتماعية

٥٦ ، والمصلحة الاجتماعية

٧٨ ، والمشاريع العمرانية العامة

ملاحظة :

سقطت بعض جمل تلفت نظر القاريء الكريم اليها « وهي في طريقها الى الحج » هذه الجملة سقطت من يد الطابـع وهي في صفحة ١٠٨ بعد وكبلوها أسيرة . .

« وبحر الهند » هذه الجملة سقطت من صفحة ٦٤ وهي بعد « وتدفقت في البحر الاحمر »

وهناك بعض اخطاء طفيفة لاتخفى على القراء

الاسلام بين السنة والشيعة

هذا الكتاب يتناول عرض الاسلام كما فهمه أئمة الشيعة والسنة في العصور الذهبية الاولى كما يتناول بشرح الادوار التي مرت عليها الفروع الاسلامية الاجتهادية شرحاً دقيقا خالياً من التطويل الممل .

ومن كل ذلك تنكشف لك الاصول الاسلامية الواحدة التي أشار اليها علامة النجف الاشرف بني الاسلام على كلمتين « كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة »

فهو شعلة روحية مقتبسة من صميم الوحي الالهي الذي أنزله الله لاسعاد الانسانية جمعاء .

— فانتظروه قريباً —

J. Lib. DATE DUE

20 NOV 1985

J. Lib.

16 DEC 1985

Jafet Library

04 APR 1995

JAFET LIB.

30 JUN 2005

Circulation Dept. 4

JAFET LIB.

21 MAR 2007

Circulation Dept.

JAFET LIB.

08 MAR 2000

Circulation Dept. 2

A.U.B. LIBRARY
301.412:D124hA:v.2:c.1
الزعبى ،محمد على
حياة المرأة فى السياسة والاجتماع
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01011001

301.412
D 124hA
V.2